

شتاء لندن

تأليف:
حميد التهامي

إن هذه الرواية من محض الخيال و أي تشابه بينها و بين الواقع فهو من محض الصدفة صيغت لمعالجة بعض القضايا المعاصرة كنموذج تحليلي لما قد ينتجه الصراع القائم بين شخصها مختلفة الثقافة و السلوك.

- الفصل الأول -
أوطان و أقدار

حين تأذن نسمات كانون الباردة بقدوم الشتاء يعتاد الجلوس مقابل الجسر يتأمل في صمت الأفق البعيد تأخذه الذاكرة إلى عالم ثان حيث تعاوده أشياء الماضي أو لعلها أفكار الحاضر التي تؤرقه ينغمس هناك دون إلتفات ودون كلام ولعل طريقة جلوسه تلك تعلن للمتطفلين أن لا مكان للجلوس أو التحدث.

ثم تمضي تلك السويعات و هو ماض في متابعة ما يجول بداخله دون إكتراث حتى يللم نفسه بعد أن غاص في كرسيه معلنا ساعة الرجوع للآن و الساعة, يمشي جاد واضعا يديه داخل معطفه لا يرى من وجهه سوى عينييه و أنفه ينساب بين حشود المارين إن كان الوقت مبكرا كأنه يحفظ موضع قدمه عن ظهر قلب ينعطف يسارا دون تثبت فقد إعتادت قدماه تلك الطريق و ذلك العنوان .

يقف مقابل الباب , يخرج يده و فيها مفتاح معلق بهلال يديره في القفل ثم يدلف داخلا يأخذه ممر صغير إلى إتساع صغير على يمينه فيه أريكتان و منضدة يقابلهما تلفاز و على اليسار نافذة كبيرة تطل على حديقة المنزل, ينزع معطفه يضعه على الأريكة يستمتع ببعض الدفع الذي يملئ المكان .

يتوجه سريعا إلى ركن المنزل على اليسار حيث يكتمل الممر بمطبخ صغير ليعد بعض الطعام حتى يتسنى له متابعة بعض الأخبار أو ربما القراءة قليلا ثم الخلود إلى النوم, كان يقوم بتلك الأشياء دون تردد كأن جوارحه حفظتها.

مهلا ... إلى متى يستمر في نسيان ذلك الدواء اللعين الذي بات عليه إستهلاكه و المواظبة عليه حتى يتسنى له إصطياد بعض ساعات النوم حتى يرتاح جسده لينهض في الغد قاصدا العمل ... العمل يقصد المختبر هناك حيث نصف مشاكله التي يحاول التخلص من بعضها كل يوم ثم لا تنتهي كأنها تعاند صبره, يتململ في إمتعاض ثم يرتمي سريعا على معطفه دون أن يكمل إرتدائه حتى ثم يخرج مهرولا ليصل الصيدلية قبل أن تغلق فالوقت بات قريبا. يسلك طريقه المعتادة رجوعا وهو يحاول إستعادة هندامه القديم وهو يمطّ شفتاه في قلة صبر, يصطدم أحيانا ببعض المارة و هو يكرر كلمات الإعتذار يمينا و يسارا ثم يمضي متسارع الخطى عن ذي قبل , يصل إلى حافة الرصيف حيث يتوجب عليه الإنتظار لوهلة حتى يسمح له بالمرور إلى الجانب الآخر حيث يسلك طريقا فرعية يجد في آخرها صيدلية السيد جونسون.

توقف فجأة حين رأى ذلك الفتى يقترب ، مد يده مصافحا ثم

قال : أظن أن ملامحك عربية ؟

ابتسم قائلاً : بلى ، كيف عرفت ذلك ؟

-لا أظن ان احدا هنا يجراً على الخروج في هذا الجو الممطر دون قفزات أو مطرية إلا من كانت دماءه حارة.

ضحك الفتى حد الانحناء ثم رد : صدقت يبدو أن ذلك شيء مألوف عندنا حين تقضي الحاجة ، و هل انت عربي أيها العربي

قال ذلك متمعنا في يديه العاريتين و رأسه الحاسر .

ابتسم قائلاً :

-ربما لست كذلك بالضبط لكن ملامحي لا تبدو كذلك طالما أخبرت باني قد أكون روسيا أكثر عن كوني عربي.

تمعن في عينيه فاذا هما زرقاوان كالامواج و ذلك الطول الفارع ربما كانوا محقين لكن حدسه لم يخذله يوما ، يميز الملامح العربية من بين آلاف الناس لكن هذا الرجل الماكث أمامه غريب الاطوار فهو واثق من كونه سيقف حتى يبادلته الحديث دون أن يترك مجالاً للقبول أو الترك .

انتبه فجأة للسؤال الأهم :

- كيف يمكنني ان اخدمك سيدي ؟

- مهلا ليس هذا ما اردته و لكن شكرا على أية حال

علته الدهشة قليلا ثم اردف : إذن ألا ترى أن الوقت غير مناسب

لكي تحقق في شيء يمكن رسمه ؟

انفجر ضاحكا هذه المرة ، لطالما اعجبته الشخصيات المرححة حتى في جديتها.

لوهلة ظنه احمقا أو ربما من هواة الأحاديث الجانبية التي لا يوجد لها متسع عنده و خصوصا في هذا الظرف.

حتى مد اليه يده ثانية و فيها بطاقته الشخصية قائلا :

- أتمنى أن تزورني في مكثبي فما أعلمه عنك اكبر بكثير من مجرد ما

قد يبدو لك مصادفة ، الأمر ضروري أيها الشاب الصغير ، لن اطيل

عليك و عذرا لمقاطعتك اتمنى إلا أكون قد اعطلتك عن شيء ما ،

بامكاني المساعدة فلدي سيارة وضعتها بالقرب من هنا ان شئت .

ادهشته كلمات الرجل لكنه لم ينسى الاحتفاظ بالبطاقة دون قراءة الاسم حتى ثم اعتذر لكونه يريد شيئا قريبا من هنا وودع الرجل في استغراب شاكرا اياه على تودده .

ما أن عاد من الخارج بعد أن نالت منه المطر حتى اثقلت خطواته حيث تركته يقطر من البلل ، حتى انتبه للجيب الذي يحمل البطاقة ، بطاقة السيد المجهول، مهلا انها هنا لكن ليدعو الله أن تكون متماسكة ، اخرجها بحذر خوفا من ان تتفتت ، حمدا لله لقد تمت المهمة بنجاح .

وضعها على المنضدة بعناية ريثما ينهي تحضير العشاء و يتناول دواءه الذي ظن انه لن يتمكن من احضاره بعد أن اعترضه ذلك السيد غريب الاطوار فالسيد جونسون دقيق المواعيد يقفل في الساعة العاشرة تماما دون زيادة أو نقصان منذ أن عرفه و لعل ذلك ديدنه طيلة سنوات المهنة .

شتاء لندن و الضباب الذي يكتنفها غالب أيام الشتاء طالما جلب له المتاعب منذ نعومة اظافره لكنه أيضا طالما الهمه كثيرا حين كان يخرج تحت المطر كأن خيوطها التي تنساب تأخذ بعقله إلى فضاء فسيح من الافكار و الذكريات التي يجد فيها بعضا من البهجة.

لا يدري أيعاتبه على الأولى أم يحفظ له جميل الثانية لكنه على كل حال رفيق ذو شجون يسائر جموحه و يكتبه في أوقات كأنما هي رسائل توجهه إلى غاية ما لم يدركها بعد.

لكل ماضٍ . .

ريان ، اسم اختارته له امه ، نعم امه التي ربته و حرصت أن يكون مواطنا بريطانيا ذا مكانة رفيعة أو هكذا املت دون أن تنظر في ماضيه و اصوله غير المرغوبة هنا في هذه الأجواء المشحونة بالسياسة و الجدالات الاجتماعية العقيمة حتى لا يكاد الحديث و لو عابرا الا يطرق باب العرق أو الدين أو التقاليد مغلفا بالمزاح و الابتسامات الصفراء .

أما التي ولدته فقد تركت له رصيذا لا بأس به من الاسئلة دون إجابات تنهش عقله بين الحين و الآخر حتى بعد تجاوزه الخامسة والعشرين كمواطن انجليزي لأم انجليزية سليمة تركت له ذلك الارث و لو على ورق ، من أين أتى و كيف تخلت عنه عائلته التي ينتمي دمه اليها أما عن معيشتة فهي ذات طابع اصيل لهذه البلد و حتى اسمه اختارت امه تلك التوليفة بين اصوله و قابليته الاجتماعية هنا كأنها أرادت أن تترك له شيئا من جذوره التي ينتمي إليها، شيئا حقيقيا عنه .

لكنها ايضا اختارت شيئا آخر ، أن لا تهبه فقط الامومة بل تاريخا حقيقيا حتى يعيش متوازنا فقد أخبرته كيف وجدته في مركز إيواء بعد أن ترك وحيدا حتى ادركته الرحمة الالهية حيث اتصل احدهم بمركز للطفولة حتى يتمكن من إيواء الطفل لديهم و رعايته .

.. يتذكر جيدا على صغر سنه حين أتت أول مرة للمكان الذي كان فيه كانت تحمل بين ضلوعها حبا غريبا قل نظيره و رأفة لم ير مثلها تبسم للجميع ابتسامة حقيقية بريئة تشي بالمودة و العطف ، حين وقعت عيناها عليه لم تتركه منذ تلك اللحظة كأن القدر رتب لذلك اللقاء .

يتذكر كيف أخذت بيده للساحة الخارجية و اسهبت في الحديث عن مشاعرها تجاهه كأنها تتحدث لأحد البالغين لم يفهم أغلب تلك العبارات وقتها لكنه اليوم حيث يدرك عمق ما كانت تكنه له لا يسعه إلا أن يبقي لها مساحة من الذكرى الطيبة حيث يمكن للبشر ان يؤمنوا أن في الحياة اشياء جميلة تستحق العيش ، كانت سيدة تتمتع بوعي فريد و حس للدعابة و رقي لا تتكلفه و تواضع فطري لا يشبه مركزها الاجتماعي و معاملات الطبقة المخملية الارستقراطية في هذه الارحاء.

لا يتذكر انه رآها يوما ترفع صوتها على من يقلون عنها أو يخدمونها ، أو أنها يوما فرقت في المعاملة بينه و بين ابنائها هذا إن لم يكن مدللها غالب الوقت حد الغيرة بينه و اخوته الغير اشقاء ، حقا لقد كانت امرأة رائعة بكافة تفاصيلها ،ماريان ، ذلك الاسم الذي لن يمحي من ذاكرته .

لقد كانت تلك عاداته يتذكرها كلما آوى إلى فراشه ، ربما هي الخيط الذي يربطه بالحياة لقبح ما فيها كأنها رواية ما قبل النوم لا يغفو إلا حين يسمعها.

تذكر فجأة البطاقة حيث التفت إليها بعد أن غادرها بعض الليل حتى يكتشف اسم ذلك الرجل الذي ظهر فجأة أمامه ،

الأستاذ علي عبدالصبور

المهنة : مدير مكتب محاماة،

العنوان : كيمب هاوس لندن

تدافعت الاسئلة في رأسه ، لم يتورط في قضية ما و لم يكن لديه اشكاليات قانونية لم تحل ، و لم و لم كل تلك الاحتمالات المنطقية لا يندرج تحت خانة أحد منها .

ما الذي يدفع محاميا لأن يسلمه بطاقة شخصية عوض اوراق مخصوصة أو لما قد يأتيه بشخصه عوض ان يأتيه ممثل المكتب أو اشعار بفحوى المقابلة التي يجب ان يحضرها و لما هو بالذات لم يكن على علم باسمه من قبل حتى ؟ .. على أية حال سيكتشف قريبا تلك الأجوبة إذا ما اتاحت له فرصة المرور لمكتبه في اقرب فرصة ، لطالما كان في حياته قصص غريبة حتى الف غرابة الأشياء لولا حتمية التعاطي مع الاحداث ببعض المنطق لظن ذلك منطق حياته الخاص، ابتسم متجاهلا ثم اطفئ ذلك النور كي يستسلم لعالم الأحلام .

علي عبدالصبور ، لقد تعب كثيرا في نحت هذا الاسم بين زملائه من هذا البلد دون أن يضطر لتغيير اسمه العربي ، مهمة أكثر من شاقة لكنه اليوم بات اسما يوثق به و يعتمد عليه في أشد القضايا تعقيدا لكن ذلك القلق لازال يرافقه ربما هو عادة المغتربين هنا رغم انه مواطن باوراق ثبوتية تؤكد انتمائه لهذه الأرض التي لم يعرف غيرها بالقدر الذي يعلمها به إذ ترعرع فيها منذ صرخة الحياة الأولى.

ذلك التوصيف لم يغادره أو ذلك حال جميع من لا ينتمون لخانة الملامح الأوروبية و إن كان يحمل شيئا منها ، يبلغه تلميحا و تصريحاً إما على طاولات العشاء ليلا أو المقابلات التلفزية التي يستدعي إليها رغم معرفتهم بحالته المدنية لكن ذلك التذكير لازم باصوله الباكستانية رغم ما حققه في هذا البلد من رفع لراية العدل و انصاف للمظلومين منها أفلا يعد ذلك شفيعا له حتى لا يتعرض لمثل هذه المضايقات ليس لأنه غير مفتخر باصوله بالعكس لطالما كانت تلك ميزته التي يدافع على بقائها ثابتة في كيانه بل لأن الحال عادة لا يستدعي ذلك الا لتلميح بالقصور أو انه استثناء لا يجب ان يحدث بين من هم من نفس العرق الذي ينتمي إليه ، ثم

يرجع ذلك لازدواجية الخطاب المعتادة هنا دائما ما كان التغني بالانفتاح ديدنا ينكشف زيفه في واقع المعاملات فلم يجب ان يربكه ذلك فيكظم غيظه للمجاملة في كل مرة فذلك ما تحتمه اخلاقه عليه ان يتغافل .

إن الوطن لم يعد ما ندرج فيه أو نتعلم السير على أرضه أو يأوينا ترابه و ما نحمل له من تعلق لقد أصبح الوطن هو البيت الذي نشعر فيه بالأمان و التشابه مع من يسكنونه دون النظر في ما قد عشناه على الحقيقة زمنا طويلا هكذا هي حال من يحملون دماء أخرى ليست كتلك التي تعرفها البيئة البيضاء فهي لا تحتويك إلا لشيء ما تمتلكه حتى يعود نفعه عليها و تلك هي الحال التي إعتادها مع مرور عقود من الزمن إجتاز فيها فورة الشباب و إستقامت فيه بعض من حكمة الكهول التي تجعله يتقبل الأشياء دون حساسية مفرطة و إن كان لا يدرك إلى اليوم مدى ذلك التغريب الذي يجب أن تحتمله أجيال من البشر لم يكن ذنبها سوى أن القدر أتى بأجدادها إلى هنا كأن العالم يجب أن يعود أدرجه لتلك القسمة الأولى بين أعراق أبناء آدم و إن كان هؤلاء لا يريدونها أيضا ربما يريدون شيئا على المقاس ربما ليست غالبيتهم لكن هذه العقلية

غالبه على من بيدهم التأثير الأكبر في هذه البلاد و هو ما يثير القلق دائما عند من يواجهون هذه الموجة من المستجدين في التصادم مع هذه المشكلات العرقية حين يودون الحصول على مركز إجتماعي أو مهني.

ربما كان هذا العصر عصرا جديدا و جب فيه على الإنسان صناعة مفهوم جديد للوطن لم يكن قديما مفهوما معقدا بعض الشيء لكنه ملزم به حتى يشعر نفسه ببعض الأمان و الإلتناء حتى يتجاوز عقدة الإسقاط التي يمتلكها هذا المجتمع .

ليس ملزما بخوض هذه المناقشات لكنها تلح عليه دائما في محاولة لفهم هذا المنطق الذي لا منطق فيه لكنه مستساغ متوارث و قدسي أشد حتى من الديانة و هو ما يثير الريبة في إحتمالية شعور الكائن الأبيض بالحاجة للبشر دون إمتهان أو تشف و هما الطريقتان اللتان تمارسان ههنا فتجد أولئك المستقدمين و غيرهم من الوافدين المواطنين و لا تسأل من أين وفدوا فهم قد وفدوا من بطون أمهاتهم لصفيحة هذه الأرض لكن ذلك لا يقع في أذهان هؤلاء إنما هي رحلة من بلد قد تكون نفثت فيهم شيئا من الإلتناء

إليها فهم جواسيس قيد التفعيل ثم مرحبا بك في المنطق الهوليودي الإنجليزي إما أن تتقبله أو تتقبله لا خيار.

يقصد مكتبه لبعض الأمور المستعجلة التي لا يمكن البت فيها إلا بحضوره تاركا ذلك الفتى في إستغرابه ربما ليس هذا الوقت كي ينشغل بقصته يصعد الدرج في خفة حتى يلج المكتب الذي لا يغلق بابه معلنا الترحيب بالجميع حيث يستقبله فراس بإبتسامة واسعة :

- مساء الخير , هل سنبيت هنا الليلة أم أن لنا أسرة تنتظرنا

دائما ما كان فراس صاحب دعابة تشعره بضحك طفولي :

- حسنا لا يمكنني أن أعدك بذلك ما دمت لم أجرب كيف يكون دفع الفراش عندما كنت في مثل سنك

- ها .. يبدو أن النوم لم يكن موجودا على أيامك

ينفجر ضاحكا :

سامحك الله , يبدو أنني لن أستطيع مجاراتك أبدا مهما حاولت

يبتسم في رضا , لم يكن السيد علي كرؤسائه الماضين لم تكن لديه عقدة الرئيس التي تجعله يبغض العمل كان مرحا لطيفا لكنه أيضا

صاحب مواقف نبيلة لطالما كان إلى جانبه في محن كان قد مر بها في أوائل تنقله بين الأعمال و بعض المشاكل الأسرية , يحتفظ له بالجميل و يعتبره أخا أكبر.

حسنا ما الذي لدينا سيد فراس , هل جميع الملفات جاهزة كالعادة نعم في ملف موجود على المكتب يمكنك الإطلاع عليها و الإمضاء حتى أتمكن من إلحاقها بقائمة الأسبوع و إلا فلتكن جاهزا لسيل من الشتائم سينهال علينا حالما نفتح الباب غدا أو بعده على أقصى تقدير في حين أردت الهروب هذا إبلاغ مجاني

شكرا على المعلومة هكذا يمكنك أن تلتزم الفراش لأجل غير مسمى و لتنعم بدفء أبدي

يضحكان طويلا, يغادره نحو مكتبه الخاص ليطلع على الملف و يضع إمضاءاته على أوراق المعاملات يترك فراس منشغلا في ترتيب أولويات الغد يبدو أن الجميع قد غادر المكتب لم يتبقى إلا هو لقد كان يوليه ثقته في بعض المعاملات المعقدة لما وجد فيه من الأمانة و الجد في العمل .

متفان هذا الفراس كان دائما ذلك التعليق الذي يروقه أن يعترف به لكن لنفسه فقط فالحزم يجب أن يبقى في مستواه المعتاد حتى لا يخبو ذلك النشاط و الحماس المتقد الذي يلمحه فيه.

فراس المازني من أب تونسي و أم ايرلندية , قدم أبوه عن طريق قوارب الموت ثم إلتقى بأمه بعد سنوات من التخفي من الأمن و العمل بالسوق السوداء , قابل تلك الفتاة الإيرلندية التي تعلقت به لسمة بشرته و دماثة أخلاقه العربية التي تقضي بمعاملة المرأة بعطف مبالغ فيه هكذا أخبره فراس نقلا عن أمه .

كان أبوه متعلما لكنه لم يوفق في إيجاد وظيفة في بلده تأمن له بعض العيش الكريم فقرر المخاطرة بنفسه ثم تنقل من إيطاليا وصولا لإنجلترا كما عادة أولئك الشباب حين يصطدمون ببشاعة الواقع العملي بعد معاناة مع مواصلة التعليم , تقودهم لمخاطرة قد تودي بحياة الكثيرين منهم دون أين يرسوا على شاطئ الأمان حيث يأملون أن يحققوا شيئا من أمانهم التي إختزنوها في صدورهم لسنين طوال قد تبدو لهم .

كان ينام تحت الجسور و يبيت طاوي البطن لأيام , تعرض لأنواع من السب و الشتم التي لم يكن يعلم معناها حتى تمكن من اللغة

..صحيح أن تلك الموجة من الشتائم قد إنخفضت قليلا لكنه لا يزال يزاولها يوميا تصرّحا و تلميحا لكن على الأقل قد إكتسب مناعة تجعله لا يكثرث .

لم ينجباه إلا بعد سنين من البحث عن الاستقرار بعد معاناته مع أصهاره الذين نابذوه طويلا فلا يليق أن يتزوج امرأة شقراء بعيون خضراء لأنها سليلة ملوك أما هو فسليل لهمج مما جعله يعاني كثيرا لتغيير تلك النظرة الكلاسيكية لمن هم من مثل منشأه .

مر بفترات إكتئاب لعدم قدرته على الإتصال بأهله خوفا من المراقبة أو أن يتم إرجاعه لبلده تونس دون أن يحقق شيئا مما قد أتى من أجله حتى عطف عليه بعض ممن عانوا مثل حاله قبل أن يتقادم بهم العهد هنا فتحصل على وظيفة ملائمة صحيح أنها لم تكن ضمن إختصاصه لكنه تفانى فيها حتى غير مساره المهني تبعا لها .

على قدر ما كان يشعر بالمعاناة على قدر ما كان مثابرا و قد كان ذلك يزيد من تشبث زوجته به حتى جاء فراس بعد خمس سنوات من الصبر و المكافحة ليبعث فيهما بعض الأمان بالعائلة و تحسين علاقتهما بأصهاره و عائلتها التي إحتفت بالحفيد مثلما لم تحتفي

بأبيه كما عادة الأطفال لولا هم لما كسرت حواجز صلابة من الصمت
و الجفاء كأن خطاهم البريئة جسور محبة لا تقاوم .

كلما كان يكبر كان يزيد من ثبات أبيه و إنتمائه لهذه البلد التي
أصبحت تربطه بها دماء إبنه المختلطة كأنه الودد الذي يقوي
عزيمته و يقلل من قلقه هكذا كان يحلو لأبيه أن يصف قدومه ,
حين بلغ الخامسة من عمره قرر أبوه بعد عقد من الزمن أن يصل
حبال أهله التي كادت تبليها الغربة لكن قلب أبيه لا زال ينبض شوقا
لللقاء عائلته التي غادرها شابا يافعا حتى بدأ الشيب يتسلل للحيته
على إستحياء معلنا إقترابه من الكهولة.

لا زال ذلك اللقاء عالقا بذاكرته , لم يكن يرى سوى الأحضان و
الدموع و النشيج فرحا بذلك الغائب الذي ظنوه قد بات ماضيا لا
يمكن فتح أبوابه لما تقادم عليها من الأيام .

مكث هناك شهرين متتابعين لم ينقطع الزوار عن دارهم في بن
عروس حيث إحتفى به الجميع كبيرا و صغيرا يستذكرون أيامه
القديمة و ما قد جمعهم من الذكريات و الجميع منبهر بذلك الفتى
الذي ورث سمره أبيه و عيون أمه فكان تحفة نادرة مع تلك السحنة
الطفولية التي تجعل أيادي العابثين تنطلق نحوه دون إستئذان و

الكل يريد ملاعبته و تعليمه بعض الكلمات الغريبة على مسمعه
لربما لم تكن كالتى كان أبوه يلقنه إياها .

كما قام الجميع بالإحتفاء بأمه بين من يريد الجلوس بجانبها حتى
يتسنى له التركيز في ملامحها الإستثنائية هناك و من يريد تلقينها
إسمه أو أسماء بعض المأكولات التقليدية التى وضعت على طاولة
الضيافة كأنها كائن من كوكب آخر, ألبسها النسوة السفساري
التونسي و القفطان و الخلخال كأنها عروس مستحدثة ليجعلوا لها
ذكرى زواج أخرى هناك و يبدو أن ذلك كان يروقها جدا لقد كانت
تشعر بالدفء الأسري الذي يتخذ صورة غير تلك التى تعرفها في بلدها
فالكل هنا يريد أن تكون له اليد الطولى في الإحتفاء بالضيوف و هو
ماكان يروق أياه أيضا , كان يرى أباه كالطفل أيامها و تلك العيون
تلتمع كلما وقعت عينه على أبويه أو إخوته أو أحد أصدقائه الذين
كانت تجمع بهم صداقة و طيدة كان يشعر بأن قلبه سيقفز من
صدره من شدة الفرح إلا هو كان ينتابه البكاء لإختلاف الوجوه عليه
لم يكن معتادا على ملاقة هكذا كم من الأشخاص لكن جدته مريم
كانت تجيد اسكاته من نوبات البكاء تلك ببعض الألعاب و العناق
المليء بالمودة كان يشعر بذلك كأنه قد دخل فراشه لينام كانت

امرأة مسنة بعض الشيء قد علاها كثير من الشيب لا بد أنها تعبت كثيرا لكن إغتراب إبنها عنها كان أشد فتكا بها فقد كانت أثار الدموع التي ذرفت لها لعشر سنين ظاهرة الأثر عليها و أما جده عباس فكان رجلا ضخما الحجم يمسك بعكازه الذي لا يفترق عنه و طاقيته الحمراء التي تسمى شاشية يجلس في تفرس في وجه إبنه و إبتسامة من الرضا بادية عليه ثم يتمتم ببعض الكلمات للقادمين المهنيين كانت نظراته تحمل قصصا كثيرة يفهمها ابوه كلما تقابلت نظراتهما ثم يبتسمان طوال الجلسة .

يتذكر حين قامت عائلة والده بنزهة إحتفاءا بقدم إبنهم الغائب حين رأى أشجار الزيتون الممتدة و الطبيعة الخلابة الناعمة لم تكن صارخة كتلك التي في لندن لكن جمالها فريد يحمل شيئا من البساطة و العتيق في آن حيث فرشت مائدة أرضية ووضعت عليها المأكولات الشعبية الكسكية الرايب زيت الزيتون و خبز الطابونة كما يطلقون عليه ليس كالخبز المحمص الذي إعتاده في منزلهم كان خشنا بعض الشيء ناعما من الوسط و الزبدة و كثير من الأسماء التي كانت جدته و عماته يلقن أسمائها لوالدته ثم يبتسمن للكنة أمه الغريبة التي تنطق بها الأشياء .

قاموا بزيارة أماكن عديدة حتى يتسنى لوالده التعرف على البلد كما قامت بإقامة بعض الصداقات مع الجيران حيث كانت تذهب مع جدته في زيارات للتباهي بزوجة ابنها أوروبية الملامح كانت تستمتع بمديح الجارات و ربما بعض نظرات الغبطة التي تلمحها في وجوه بعضهن كانت تشعر بالفخر لكنها تنقبض شيئاً ما حين يذكرنها برجوعه لبلد الغربية مع بعض التوصيات مهلاً مع آلاف التوصيات التي تتطلب ذاكرة خرافية حتى تحفظها فحتى الحافظات المتطورة قد لا تستوعبها.

إن بساطة الناس هناك كانت تعجب والدته كان ينظر في عينيها كلما إصطحبته معها هي وجدته في تلك الزيارات صحيح أن الغالب هو لغة الإشارة مع بعض الجمل غير المفهومة شيء من الإنجليزية و شيء من العربي الممزقة من أمه لكن الأمر يبدو جيداً فهناك بعض الفهم لعموم المواضيع ربما لتكرار سماعها لوالده حين يطلق العنان للغته الأم ثم يضحك طويلاً حين توقفه بعد أن يئست في مجاراته حتى يبدأ بالترجمة.

مع مرور الوقت أصبح يعتاد الوجوه يتعلق ببعضها كجدته مريم و جدته عباس كان يحلو له اللعب بشاشيته التي كان لا ينال شرف

لمسها إلا هو إحتفاء به كان جده يلعبه كالأطفال كأنه يصغر
لسنوات فلا يعود ذلك الكهل الوقور بل طفلا من أقرانه مما كان
يزيد من شغبه في الدار فهاهو يختبئ حتى يعثروا عليه و هاو يقوم
بالعبث بالمائدة أو بضرب أحدهم كان مستمتعا بالأجواء حيث لا
يتم معاقبته حتى بذلك الصوت الحازم الذي إعتاد سماعه من
والديه لمكانته اخاصة التي إحتلها في هذه المدة.

يتذكر حين حان يوم العودة كان يوما كذلك الذي قدموا فيه ظلت
جدته تبكي و تقبل جبين أبيه ثم تلاعبه هو و تعانقه كأنها تريد
إخفاءه بين ظلوعها , حتى أنه كان يشعر ببعض الحزن الذي لا
يذهب عنه إلا حين تعود لملاعبته , كان يشعر ببعض الكآبه التي
تغشى وجه أبيه لم تكن تلك الأشهر كافية لملئ ذلك الفراغ الكبير
الذي في صدره ذلك الخندق الذي حفرته سنين السهر و القلق و
الوحدة و المصاعب التي لم يكن بجانبه فيها سوى والدته التي كان
يراه باكيا بين يديها حين تشتد به , يتنهد طويلا دون حديث ثم
يكسر تلك الزفرة بإبتسامة تلمح بميثاق للعودة في القريب فقد
إجتاز تلك القيود الآن و بإمكانه السفر بطلاقة متى سنحت
الظروف له بذلك ذلك ما كان يطمئن به والدته و أما أبوه فكان

صامتا يبدو أن لغة الصمت أبلغ بين الرجال من الدموع و الكلام
كانت نظره أبيه الجوعى لمزيد المكوث بجانبه تخترق صدره
فيسقط نظره في الأرض طويلا هربا من تلك السهام التي لا يمكنه
إحتمالها.

سيفتقد تلك الأجواء التي لا قيود فيها المليئة بالدفي و الإبتسامات
الودودة و الهدايا الغزيرة التي يغدقها عليه أعمامه و عماته و الجميع
هنا فقد كان مدلل الكل هنا , سيرجع لذلك الجو الرتيب تتركه أمه
مع جدته آن لتلتقي به إما على الغداء أو مساء حيث تمكث في
مساعدة أبيه نصف اليوم أو كله و لا يكتمل إجتماعهم إلا ليلا على
العشاء ثم بعض من الأجواء الأسرية حتى يتسلل النعاس للجميع
فينذهبون للنوم لملاقة يوم جديد أما هنا فتلك الهالة لا تنقضي
ليوم كامل كانت أشد مرحا من مدينة الألعاب التي يذهب إليها مع
والديه و جدته في عطلة نهاية الأسبوع.

يوم العودة كان بالغ الصمت و الجميع يذرف الدموع من المنزل إلى
المطار و من الغريب أن والدته أيضا كانت تبكي بشدة أيضا كأنها قد
وجدت عائلة جديدة كعائلتها التي تركتها في ويسمنستر , تحتضن
والدته بحرارة ثم تقدمه إليه حتى تضمه لصدرها أكثر أما أبوه فكان

وجهه مظلما لشدة الحزن لكنه يكسر ذلك بإبتسامة هي أقرب للتكشير ينهمك في إحتضان أبويه و البكاء حين سلكا الممر المؤدي لغرفة المسافرين بعد الإعلان عن قدوم موعد الرحلة , كانت جدته تلوح باكية و أما عماته و أعمامه يمسونها حتى لا تقع لشدة تأثرها لكنها تبتسم حين تقع عيناها عليه كأنها تريد وعدا منه بالرجوع و هو يلوح لها في براءة فيتهلل وجهها بعد أن كسته العبرات .

كانت تلك الملحمة التي خاضها أبوه تجعل منه يحتمل ظروفًا قل من يحتمله فيمن بلغوا سنه يستمع لتشكيات أقرانه بسخرية , حقا كيف للإنسان أن لا يقدر نعمًا كثيرة يتمتع بها , أبي لا يقدر حجم الضغوطات التي أمر بها يصفني بالمدلل كانت هذه إحدى التشكيات التي يسمعها فيضحك في تكتم و هل رأى حقا هو حجم الشقاء الذي يعيشه أبوه حتى يوفر له ثمن معيشته , هل تلقى الشتائم التي تلقاها أبوه حتى يتسنى له هو مزاحمة أقرانه و التفاخر أمامهم بكونه قد إشتري الماركة كذا قبلهم أو ذهب في الرحلة كذا التي تبلغ ضعف ما بلغ أقرانه في النزهة الفلانية, لقد كانت قصة والده تجعل منه فتى أكبر نضجا و أقل تدمرا إذ لن يبلغه شيء من القسوة بقدر ما بلغ والده على الأقل , كان دون عائلة دون حصانة

و دون معرفة لكنه قبل التحدي و خاض غمار المصاعب حتى يوفر له هذا المستوى من المعيشة كانت تلهمه و تزيد من عزيمته مما يغبطه عليه المحيطون به .

كان يجتهد حتى لا يذهب ماضي أبيه المليء بالمرارات سدى في سبيل أن يبلغ هو شيئاً أجمل و أشد بهجة و أكثر أماناً, لقد شب و هو يستمع لتلك المهاترات و السخريات التي تجعله عميلاً مزدوجاً عند البعض فالشق العربي يراه متملقاً أما الشق البريطاني فيراه من دماء غير خالصة لا تجعله يرتقي لمرتبة الشرف سوى قليل من أصدقائه الذين تجاوزوا ذلك السعار ممن كان لهم بعض الوعي الفريد كما يراهم هو, كان لا يجيد مشاركة همومه مع أحد حتى القريبين منهم و لا حتى مع والديه لكنه كان يتسلى بسماع مصاعب من يرونه حافظ السر فيختفي حزنه أو يقل حتى إلتقى يوماً بالمحامي علي عبدالصبور كان يبحث عن عمل حينها بعد أن رفض طلبه في دخول مناظرة المحاماة و تنقله بين مكاتب كثيرة كمتربص لم يشأ أحد منهم توظيفه بعقد عمل قار فقد درس الحقوق أملاً في أن يحقق حلم أبيه في أن يصبح محامياً لعله يحفظ بعض حقوقه التي

أسقطها قديما و يرفع عنه أثر المهانة التي كان قد عاشها في سنيه
الأولى هنا.

كان محتقن الوجه يلقي ببصره أرضا غير آبه بالوجهة التي يسلكها
حتى إصطدم به :

- عذرا سيدي ؟

- لا داعي للإعتذار فقط إرفع بصرك و كل شيء سيكون على مايرام
و إلا فإنك ستعتذر كثيرا و قد يصل الأمر ببعض السيدات أن
تصفك بالمتحرش النائم .

- أراد أن يغالب حزنه بإبتسامة لكنها كانت تكشيرة أكثر عن كونها
إبتسامة:

-شكرا على التنبيه حقا نصيحة قيمة

تركه يمضي لكن سرعان ما جذبته شيء ما لإيقافه :

- مهلا مهلا أيها الشاب

- ماذا سيدي هل ناديتني ؟

- نعم

- حسنا تفضل أم هل ستكون أنت إحدى السيدات؟

قال ذلك بغضب ينم عن البركان الذي يغلي في صدره لم يكن في عقله سوى خيباته التي غالبها بكثير من الصبر لكنها أبت إلا ملازمته في أي طريق يسلكها

جعله ذلك يضحك مما زاد من إستغرابه هل أصبح أضحوكة لمن يعترضون طريقه ألا يود أحدهم تركه و شأنه على الأقل أم أنه ألعوبة هذا اليوم؟

أردت فقط سؤالك كيف تجتمع السمرة مع عينين خضراوين؟ ثم كيف لشاب مثلك أن يمشي دون إنتباه للكهول أمثالي؟

كان دائما يحب الدعابة حتى في أحلك الظروف يبدو أن إشتغاله الكثير بما يلاقيه الناس من مشاكل مستعصية جعله قليل الغضب متوددا إلى أبعد حد

سيدي لقد إعتذرت لك ثم إن أردت مقاضاتي لهذا الإصطدام العنيف بعمود فلاذ مثلي فلك ذلك أما أن تجعلني تسلية اليوم فأسمح لي أن أقول لك أنك تتجاوز حدود الإحترام

كيف لشاب في هذا العمر في هذه الأنحاء أن يجيب بهذا الإحترام الكبير وهذه اللباقة الفريدة عادة ما يسمع شيئا من قبيل " اللعنة " , " ماذا تريد مني أيها الأبله " , " تبا " مما زاد من إنجذابه إليه حتى يتعرف إليه

- أعلم ربما كان يومك سيئا حتى لا تحتمل دعابتي أنا آسف أخي لكنني فقط أرد التعرف إليك فهل تسمح لي بذلك قد يبدو ذلك غريبا لكنني حقا أود التعرف لأصدقاء جدد .

وافق مجبورا لعله يصلح شيئا من حدة ما قاله لشخص يكبره سنا - بكل سرور إذا كان ذلك يريحك سيدي - لن أرضى بأقل من ذلك

إبتسم أخيرا لا يعلم لماذا ربما لما رأى من وداعته

إتخذا لهما مجلسا جانبا في مقهى قريب بعد أن تنازعا عن سيدفع الثمن جملة و يبدو أن ذلك كان مناسبا للسيد علي حتى يفتح الحديث معه في شيء

- إذن تريد دفع الحساب ما هذا الكرم الغريب عن هذه الأنحاء يا صاحب العيون الخضراء ؟

- سيدي ذلك أقل ما يمكن أن أفعله بعد الذي تسببت به لك يبدو أنه كان مؤلماً لكهل مثلك كما يحلو أن تصف نفسك مع أنك لا تزال شاباً في نظري

علته إبتسامة تودد :

- ليس لذلك الحد فالشيب قد دق الباب و يبدو أنه ينوي التوسع

- لا عليك فالمحسنات كثيرة

- لكني لا أنوي غش نفسي

يشعر بإرتياح يزداد لمجالسة هذا الرجل الذي يأخذ الأشياء ببساطة

- على كل إسمي علي عبدالصبور و أنت ؟

- تشرفت بمعرفتك فراس المازني

- ها أخيراً شيء مشترك سوى حس الدعابة , عربي إذن ؟ لكن كيف

ذلك أجد طلة بريطانية هنا بعض النمش و العيون الملونة , أعذرني

إن أكثر من ذلك فعلاً مميزاتان

- ماذا يحدث حين تمزج الشكولاتا بالحليب نفس الشيء

- ها إذن مختلط , يبدو ذلك منطقيا الآن

- نعم أمي بريطانية أما أبي فتونسي

- يبدو أنني سأسجل هذا اليوم أول تونسي أعرفه على قائمة

الأصدقاء طبعا إن سمحت لي بإعتبارك صديقا

بكل سرور و ماذا تعمل ؟

- عملت قدبما محاميا أما الآن فلم أعد أزاول المهنة بنفسني أمتلك

مكتب محاماة ليس بعيدا من هنا يمكنك زيارتي إن أردت هذه

بطاقتي المهنية

ثم أخرج بطاقة زرقاء اللون تحمل شعارا غريبا هلال و داخل قوسه

ميزان يبدو ذلك مختلفا بعض الشيء

أخذ البطاقة منه إحتفظ بها في حقيبة الظهر خاصته

- يبدو أن هناك أمرا مشتركا ثانيا ستضيفه إلى قائمتك

- و ماهو ؟ أتوق لمعرفة ذلك

- لقد تخرجت من كلية الحقوق أيضا لكني لم أنل شرف المرور
لسلك المحاماة ربما ذلك ما ضايقني صباحا حتى أني لم أنتبه
لمرورك فأصطدمنا

ثم إنتبه قليلا لذلك الذي يراه إفراطا وثرثرة , ما الذي يجعله يعترف
هكذا بكل بساطة لشخص لا يزال غريبا عنه لم يخالطه سوى
لساعة تقريبا أو أقل ؟ يشعره ذلك بفقد التوازن قليلا كأن إعترافه
ذلك قد هز شيئا من الكتمان الذي إعتاده.

- ها هذا جيد جدا يبدو أن القدرة الإلاهية هي ما جمعتنا إذن , و
هل تعزم الممارسة في إحدى المحاكم أنك لم تعد مهتما ؟

- دعك مني سيدي فالأمر معقد جد و أنا غير معتاد على هكذا
جلسات إعتراف المعذرة لكني فعلا لا أنو خوض أي حديث في هذا
الخصوص

- أعلم أن الأمر سيء لأني مررت بتجربة مماثلة لكني أعدك أن
الفرص كثيرة و المحاولة لا بد أن تثمر أم أنك تنوي إحباط والدك
بعد هذا العناء مع برائن العنصرية التي تمسك خناق المغترين هنا
؟

لقد وضع يده على الألم مباشرة كأنه يشاهد ما يعبث بداخله من الأفكار لا بل كأنه عاين شبابه جميعا منذ و ما عاناه في دراسته و حتى تلك الدموع التي ذرفها خلسة في كل إحباط مع مكتب محاماة أو رئيس محكمة من اللواتي تقدم بالتماس إليها حتى يتسنى لها الإعتراف به بعد التربص حتى يجتاز سنتي التأهيل لممارسة المحاماة , شرد قليلا مع أفكاره التي دق بابها هذا السيد حتى وجد يده تربت على كتفه

- لا تقلق الأمر أبسط مما تتخيل ليس هذا نهاية التحديات أيها الفتى

نزلت تلك الكلمات كالبلسم على فؤاده كأنها نسائم باردة في يوم حار من أيام الصيف

- لا أعلم كيف أشكرك سيدي لا بد أني سأتعمد الإصطدام بأمثالك كل يوم

ندت عنه إبتسامة يشوبها الضحك قليلا , و أخيرا ذهبت القتامة عن سحنة هذا الشاب الخلق الذي لا يليق به ذلك الإنطفاء الذي رآه منذ قليل .

- إذن هل تقبل زيارتي في مكتبي في القريب العاجل ؟

- بكل تأكيد , ذلك من دواعي سروري

- ثم شيء آخر نادني أخي علي ذلك أقل تكلفا لم أعد أطيق التكاليف

المبالغ فيها هل لي بذلك ؟

هز رأسه موافقا

- حسنا أخي علي

- هذا أفضل

ثم غادرا المقهى بعد أن أشار الأستاذ علي عليه بأن عليه المغادرة

لضيق الوقت

قفل راجعا إلى البيت و هو يشعر بإرتياح عظيم كأن جبلا قد إنزاح

عن صدره لم يظنه سيرحل بهذه البساطة .

يصل إلى المنزل مفعما بالنشاط على غير عادته حتى والدته لاحظت

ذلك إقتربت منه ثم همست في أذنه فهذه طريقته التي تودد بها

إليه :

-ها يبدو أن الفراشات قد إقتحمت أيام الشتاء قبل وقتها ؟

يضحك , ينظر إليها بطرف عينيه :

- نعم يبدو ذلك ثم ألا يبدو إبنك ربيعا قد تتبعه الفراشات ؟

- بكل تأكيد , إذن , هل من أخبار سارة أيها الربيع ؟

- يبدو أنها بوادر أخبار سارة أو فلنقل فأل خير

- هل تخبرني به إذن

- يؤسفني ذلك سيدة مازني لا يمكنني ذلك حتى أنظر كيف ستسير

الأمر

- يبدو أنك لن تتناول وجبتك المفضلة إذن ستحصل على بطاقة

حمراء أيها السيد الكتوم

- تعلمين أن ذلك عقاب لا يمكنني إحتماله , النظر إلى صحن

الكسكسي و عليه حماية مشددة ذلك من قبيل الجلد أو أشد

تبسم قائلة:

- حسنا يبدو أنني سأعفوا عنك لكنني سأنتظر أخبارا سارة قريبا ,

تعدني ؟

- لكي ذلك

- إتفقنا إذن

يقفز متوجها نحو الطاولة حيث تتوسطها القصعة التقليدية التونسية مليئة بالكسكسي المزين بالفلفل و اللحم و الخضار , هنا ينغمس في الأكل دون إنتظار لا يمكنه مقامة ذلك الإنجذاب .

تهتف أمه بصوت عال منادية أباه :

- فلتسرع أيها الأب العزيز فهناك غزو لطاولة الطعام قد يتركه جائعا فيما تبقى من اليوم

يرمق أمه مبتسما و قد إمتلئ فمه بالأكل

أمه كريستينا أو كما يحلو لأبيه مناداتها ب" ورد" إسم عربي إختاره لها كناية عن العطر الذي وضعتة في حياته هنا بعد معاناة مع رائحة المنابذة و الرفض التي إشتمها كثيرا , متعلمة إختارت ان تكون ربة بيت و هو ما يثير حفيظة أهلها الذين يلقبوها بالخادمة الحداثية لتنصلها عما أرادوه لها من أن تكون امرأة مستقلة ماديا تركض وراء إرتقائها المهني أكثر من الزوج و العائلة اللذان يجب أن يحتلا المركز الثاني ضمن أولوياتها, لم تكتفي بذلك حتى أضافت إلى إختياراتها زوجا من أصل عربي مقيم بطريقة غير شرعية حتى توصف

بإضطراب في السلوك يضعها في خانة المجانين , لكنها أصرت على إختياراتها تلك حين أخبرت والده أن يتزوجها فرفض بادئ الأمر متعللا بأنه لا يريد إضافة مشكلة جديدة لحياته قد تعرض حياته للخطر حتى قامت بطمأنته كان ذلك كفيلا بأن يجعلها تثق من إختيارها له لو كان صائد فرص أو لعوبا لقفز فرحا لذلك , ثم تعاهدا على الإخلاص و أن يحترم كل منهما ديانة الآخر كشرط أساسي من أبيه الذي عانى الويلات لكونه مسلما , إجتازت مع زوجها فترات عصيبة إمتحنا فيها ثقة كل منهما بالآخر و محبته له و إخلاصه لعهوده حتى أتى ذلك الرباط الوثيق الذي زاد من إلتحامهما ببعض , إبنهما الوحيد فراس , حاولت الإنجاب بعده لكن محاولاتها لم تؤدي إلى نتيجة كان ذلك يشعرها ببعض الحزن لما تعلم من حب زوجها للأطفال كما هي عادة العرب لم تكن لتبخل عليه بهدية أخرى و ربما هدايا لكن الله لم يرد لهما ذلك فإكتفيا بإبنهما في رضا , لم تشأ أن يربو مدللا أو متواكلا بل كانت صارمة في تربيته حتى يشب قوي الشخصية معتمدا على ذاته و قد ساعدها في ذلك حسه المتقدم بالمسؤولية منذ صغر سنه يبدو أن ما عاينه أبواه كان بالغ

الأثر فيه كلما سنحت لهما الإجابة عن بعض فضوله الطفولي الذي لم يغادره إلى الآن .

لم تكن أمه منغلقة الفكر كما أنها لاحظت من زيجات رفيقتها ما يجعلها تريد خوض تجربة زواج مختلفة مع شخص مختلف , كانت تسمع تشكيات رفيقاتها من أزواجهن و المسؤولية الثقيلة اللواتي يحتملنها حتى يبقين أسرهن في تماسك , قصص طويلة من الخيانات ربما المتبادلة و أطفال بأمهات دون آباء في حياتهم أو ربما أب برتبة بنك فقط و أما أن توفر الحنان الأبوي فإنهن سيفقدن الوقت الخاص مع أزواجهن الذي يتضائل مع تصاعد التحديات المهنية , كانت هذه هي التجربة الموحدة التي خاضتها كل منهن ثم وحدة التفكير بين الزوجين لم تكن تروق لها فوجدت في أبيه الخيار الذي بحثت عنه طويلا بعد تجارب عديدة فاشلة من المواعيد التي لم تتجاوز المناقشة حول صورة العلاقة التي تنوي بنائها مع الشريك المناسب و التي كانت تنتهي بمغادرتها غاضبة رغم محاولاتها لإيجاد شيء من الإستثناء مع كل شاب جديد.

لم تنظر أبدا في مخاطر إرتباطها بذلك الشاب الذي الآتي من بلاد لا تعرف عنها سوى ما أخبره هو بها حين إختبأ في حديقة بيتهم

هربا من الشرطة بعد أن ظن نفسه ملاحقا, تتبعته حتى رأت أين يعمل في ورشة حدادة قريبة يمتلكها جارهـم الجزائري مختلف الطباع عن العوائل هنا , كان متزوجا , زوجته لا تغادر المنزل إلا نادرا حين يخرجان للتنزه يقوم بإيصال الطلبات إليها بنفسه حين تحتاج شيئا كانت ترتدي وشاحا على رأسها و تلك الألبسة الفضفاضة التي تشبه لباس الراهبات كانت غريبة بعض الشيء بالنسبة إليها .

تكررت لقاءاتها مصادفة به تلك التي كانت تفتعلها لم يكن جيد كثيرا التحدث بلغتها لكنها كانت تبتلع تلك الصعوبة ببعض الإشارات فتمر تلك العقد في منتصف الحديث بسلام , تذكر تلك الأيام بتهكم حين تريد مـمازحة زوجها الآن , حتى عرضت عليه أن يتزوجها بعد أن علمت أنه يعمل هنا مؤقتا حتى يتسنى له توفير ما يمكنه أن يبحث به عن عمل ملائم لشهادته الجامعية , لقد تعلمت شيئا من الفرنسية لأجله حين كان يحدثها عن دراسته العليا , حاول مؤجره ثنيه عن الإلتقاء بها لما قد يجره لمتاعب لا يمكنه إحتمالها لكنه كان يخبره بأنها مجرد مصادفة وأنه لا يمكنه تجاهل أحد يريد التحدث إليه حتى أصبح يتغاضى عن ذلك .

حتى إستقر بهما الأمر إلى أن يتزوجا سرا , لقد كان ذلك الخطأ الذي ألقى بمزيد من المتاعب على عاتق زوجها الذي أصبح يتفرس فيما كان القادم أحد أفراد أسرته أم أحد أفراد الأمن حتى يتخذ طريقا آخر , ناما تحت الجسور , عند بعض الأصدقاء , في المحطات إلى أن نجح زوجها في إيجاد وظيفة أكثر ملائمة في مطعم يعد الأكلات التونسية حيث أصبح مدير المكان يعتمد عليه لمعرفة بالأطباق و طريقة تقديمها أكثر من غيره ممن كانوا يشتغلون عنده حتى إستقر به الأمر إلى تغيير مساره المهني نحو فنون الطبخ ثم إن مديره كان عطوفا جدا حيث ساعده كثيرا للحصول على أوراق ثبوتية هنا حتى يضمن مكوته معه دون متاعب .

لم تكن يوما تهتم لما يجابهه زوجها من مضايقات ليس لأن ذلك لم يكن يحزنها بل لم يكن شيئا يجعلها تندم لإختيارها إياه كانت ترى فيه صبرا و مثابرة و أملا ربما أكثر مما كان عندها رغم إفتقاده لكل مقومات الأمان و الثقة بالنفس كانت ترى فيه الملهم و المحب في آن . كانت حين تراه يصلي تزيد سعادته كأنه لم يكن ذلك الذي كانه قبل قليل منكسرا فاقد الرغبة في الإقبال على الحياة حتى تجده متهلا يحاول مداعبتها و إدخال السرور عليها حتى تتناسى ما تمر

به علاقتها بعائلتها من سوء و توتر حتى أصبحت تذكره بالصلاة في كل وقت حتى مازحها ذات يوم قائلا :

-هل هناك صلاة لا أعلمها تصلى هذا الوقت ؟

- و هل للصلاة أوقات عندكم ؟

- بالتأكيد سيدة مازني , خمس لكل واحدة منها وقت معين

- ظننتها مثلنا في كل وقت

- و هل القداس في كل وقت ؟

- لا بالتأكيد

- ها إذن كذلك هذه الصلوات أما ما تتحدثين عنه فنظيره الدعاء عندنا

- هذا عجيب لكن ما دام يسعدك فهو أمر يجب علي تذكيرك به

- أعلم ذلك عزيزتي شكرا حقا , لا أعلم ما الذي يجعلك ترتمين في هذه المتاعب بالمجان

- إذهب و صل

يضحك طويلا :

- يبدو أننا لم نستوعب الدرس

- لا ولكنك تضايقني بحديثك كيف تره مجاناً وأنا أنعم بزواج مثلك
يسعى لإسعادي بأقصى ما يملك من جهد ذلك أكثر مما أتمنى
- حقا؟

- بكل تأكيد و هل تراني أمزح؟

يحدق في عينيها بإبتسام ثم يقول :

- حقا أنت ورد .

- وما معنى "ورد"؟ هل هي بعض نكاتك السمجة؟

- لا على العكس "ورد" يعني زهراً وجودك بجانبى له عطر
خاص يذهب بروائح الشقاء التي أزاولها كل يوم
تمتلئ عيناها بدموع الفرح

- أنت تجعلني أبكي في كل مرة لن أسامحك أبداً

يمكنان متأملين بعضهما وقد حدق كل منهما في الآخر ببسمات
عريضة تشي بالبهجة الغامرة التي تحفهما رغم قساوة الظروف.

تذكر ذلك كلما مكثت تذكر الماضي ماسكة فنجان القهوة بعد أن غادر زوجها وإبناها المنزل بعد الغداء, خيوط المطر ورائحة القهوة تعبت بالذاكرة دون مقاومة , تسافر بعيدا بين سطور الماضي تقف عند الأيام كالمحطات , عند التفاصيل حيث السعادة أو الحزن الذي لا يمحي , حقا الحياة قد تختزل في التفاصيل.

هاهي اليوم تقف أمام ذلك الحلم الذي أصبح حقيقة أمام عينيها تجربة فريدة مع شخص فريد لطالما رأته كذلك , تشعر بإرتياح عظيم كلما تذكرت كم التحديات التي وضعتها أمامها حتى تظفر بما هي فيه الآن كأن هذا الحاضر كان مستقبلها الماضي الذي سعت لتحقيقه رغم طوال الليالي التي أمضتها قلقة دون بيت و دون عائلة بعد أن كانت مدللة تنعم بحياة تشبه أقرانها إختارت خوض تجربة تحفها المجازفات و المخاطر لتنعم بما هي فيه اليوم .

كان يجب أن يمر على المكتب ليستعد للقاء الذي تم إستدعائه إليه من قبل تلك الصحفية , كانت قد وجهت إليه دعوة تحمل تاريخ اللقاء و بعض العناوين التي ستطرح كأسئلة رئيسية و أما مكالمة الهاتف فكانت مقتضبة جدا مع أنه الضيف الوحيد للبرنامج شيء لا يشعر بالراحة أبدا لما سيأتي خصوصا و هو يعلم توجهها

للمواضيع التي تطرق باب العنصرية و تأسس له مع أن المواضيع المطروحة لا يجب أن تمس شيئاً من ذلك لكنها تتعمده كجمل القنوات الوطنية و غيرها هنا .

كم يضايقه هذا التوجيه الإعلامي لعقول فتية نحو آتون من الكراهية و الأحكام المسقطة ثم يدعون حل الإشكالات التي تعوق الإندماج و قد أسسوا لما يضادها غريب هذا النفاق الإعلامي على أعلى طراز , تلك الوجوه الباسمة كل صباح و في كل شاشة تحيطك بالموجات الإيجابية على حد تعبيرهم و في ثناياها من السواد بحجم الكوكب , صحيح أنه يدرك ما يجب أن يساهم به في تغيير تلك النظرة لكن الأمر يسوءه لعلمه أن الكثير تحت غريزة الإنتماء و الثقة لما هو وطني يتشرب أشياء تناقض اللحمة بل تأسس لإنقسامات لا يدرك ضررها إلا حين تزداد أو تسفر عن خسائر غير متوقعة حتى تصبح فاجعة يتم تحليلها على مختلف الشاشات .

كل تلك التساؤلات كانت تطرق عقله يريد أن يتجاوزها إبان اللقاء حتى لا يسقط في أحد أفخاخها اللئيمة التي تصنعها أياد ناعمة لتخدم شيئاً يناقض مبدأ التعايش العام , لو كان للإجرام وصف آخر لكان مقدمو البرامج و معدو النشرات الصفراء , و الكل يدعي

الشفافية في الطرح و خدمة القضايا المعاصرة و اين هو من ذلك , لكنه لن يقع فريسة لذلك , أخذ يصنع نموذجا للحوار طبقا للإستدعاء الذي قدم إليه و ما قد يتناسب مع ذلك من مواضيع ساخنة تذكره بأصوله و فضل هذا البلد عليه كما هي عادة التقديم لشخص يتكلم العربية و لربما كان مواطنا خالص النسل , يا لها من سخرية .

كانت تتدخل في جميع المواضيع لا تترك شيئا حتى تبحث في تفاصيله , لم يكن لا الطعام و لا يوميات المدعووين الشخصية تهمها فقط تفاصيل الأخبار و كيفية بلورتها على طريقها المتفانية في اللدغ دون أثر هكذا كانت حين إلتقاها في بعض الندوات أو العشاءات المهنية التي يلتقي فيها أصحاب القانون مع الإعلاميين حتى يعرف أحدهما بالآخر في الوسطين كتواصل بناء بين الوسطين , نعم لا تعجب بناء يبني علاقة بين إعلامي ماكر و محام يحميه من زلاته الإعلامية حقا هكذا هو التواصل البناء .

لا ينكر وجود الشرفاء و العادلين لكن تلك الرائحة أخذت في التصاعد ربما للأمر علاقة بالمادة دون النظر فيما قد يطال المتأثرين بهذه الصورة التي يشاهدها الملايين أو يثقون بها , و من

المخجل رؤية الخيانة دون قدرة على إجلائها حتى لا يزداد الوضع سوءا .

لربما كانت لا تندرج ضمن الخائنين لمبادئهم لكن مبادئها في حد ذاتها في حاجة إلى المراجعة هي الأخرى ثم هل أصبح التأسيس لعلوية الأشخاص على بعضهم البعض أو دولة على أخرى أو أحقية شخص في أن يهدم شخصا آخر لمجرد إختلافه عنه في أسلوب الحياة قضية وجب على من يعتقدونها الدفاع عنها تحت عنوان نشر الوعي ..أي وعي هذا ؟ حتى غرائز الغاب التي تفضي لقتل البعض حتى يعتاش البعض الآخر لا تقتل إلا لحاجة فأين هي الحاجة هنا لم يدعوا للأفكار ساحة نظيفة تتفاعل فيها حتى يتقي الفكر الأسمى الأنفع للبشرية , يزفر طويلا ثم يؤوب لتلك الوريقات التي وضعها أمامه يخط عليها الحوار الذي سيقدمه مع أسئلة محتملة ربما يخرج منتصرا من ذلك اللقاء.

لما قد ينذر إيجاد أشخاص يحملون معاني النبل على أرض تدعيه ؟ أم هل هو فقط فيما يزيد من الرفاهية المادية أما عن الرفاهية النفسية فهي أولوية ثانوية برأيهم ؟, ربما يفسر ذلك الموجة المتزايدة للتوجه نحو الطب النفسي و التأهيل للتواصل هنا فلقد

غفل الكثير أو منظموا هذه الحملات الشعواء بعلمهم أو بغيره لتصادمات أكثر في هذا المجتمع حتى كثرت تلك العقد النفسية و ذهبت بكثير من الأرواح أو أدت لتلفها العقلي أو في طريقه .

إنها لورين صحافية متفانية في عملها أو هكذا قرر زملائها الذين يشاطرونها نفس الآراء و المحيطون بها من المتملقين حتى لا يطالهم قلمها بما يخدش صورهم التي يسعون لتلميعها ليل نهار , درست الإعلام و تميزت فيه و أفنت فيه سنين شبابها الأولى , كانت تلتزم بالقضايا المطروحة أكثر من إلزامها عند مصفف الشعر.

كان الاستاذ علي قد تم استدعائه من قبلها لمناقشة بعض القضايا التي تهتم المرأة و الطفل بين القانون و المجتمع كان قد اعد لهذا اللقاء طيلة الاسبوع المنقضي كل يوم كان يمر كان يعيد النظر فيما قد يطرح مباغثة أو على سبيل التطويع لصورة ما لعلمه بمناورتها النقدية و استفزازها للضيوف ، لا أحد يجيد تلك المراوغات مثلها على الأقل في محيطه الضيق هنا ممن ينتمون للاعلام .

في صباح اليوم الموعود كان أمام مبنى المؤسسة , إجتاز البوابة الرئيسة ولوجا لقاعة الإستقبال، رحبت به موظفة الاستقبال في الطابق الأرضي للقناة بتحذلق انجليزي فاخر كان يحفظه عن ظهر

قلب و ذلك التلعثم المصطنع في نطق اسمه ثم التعذر بأن حروفه صعبة لذلك تقرر نطقه كما يحلو لها : " آلي أبديسيبور " و كالعادة يقبل ذلك برحابة صدر متقبلا لتلك الاعذار الجوفاء ، طلبت منه ان يتبع رجلا طويل القامة بياقة و هندام موظفي الاستقبال مع كلمة " تفضل سيدي من هنا أرجوك " ، أخذه عبر ممر طويل بعض الشيء في آخره فسحة صغيرة و غرف عليها ارقام للضيوف و المذيعين بالقناة ، طلب منه ان يدلف الغرفة المخصصة له حتى ينتظر استدعاءه للاستوديو الرئيسي حيث ستجرى المقابلة التلفزيونية .

جلس على الأريكة، وثيرة بعض الشيء تدعو للجلوس مطولا ، تفقد هندامه في المرأة المقابلة ، هناك طاولة على يساره تحمل بعض ادوات التصفيف و التجميل مرتفعة بعض الشيء و أخرى أرضية لعلها للضيافة عليها علبة لبواقي السجائر ، لا تفيده في شيء لطالما لم يكن مدخنا بالفطرة ، ثم مكث يعيد ترتيب افكاره و ضبط معلوماته عن موضوع الجلسة الحوارية .

لم يقطع عليه حبل افكاره سوى طرق خفيف على الباب يطلب الدخول ، صوت انثوي :

- سيد عبدالصبور ، لورين هل يمكنني الدخول ؟

اعتدل في جلسته ثم أجب :

- بكل تأكيد سيدي تفضلي

- لورين ، مقدمة " القانون و المجتمع " -اسم البرنامج الذي تم

استدعاءه إليه -

- مرحبا سيدي سررت بلقائك ، المحامي علي عبدالصبور ، أظننا

إلتقينا من قبل أليس كذلك ؟

- نعم ، ربما ليس كثيرا ، لذلك وددت التذكير لا غير

- لا بأس ، بكل سرور سيدي

- سنكون تحت الهواء بعد ربع ساعة كن جاهزا ، ستكون مقابلة

لطيفة لا داعي للقلق ، الحوار لا يتجاوز الساعة ببعض الفواصل

الاعلانية و أما باقي التفاصيل فكما هو معلوم قد امددتم بها سيدي

أليس كذلك ؟

- صحيح ، شكرا للطفك

- إذا أردت شيئا ما قبل البدء فهناك جرس على يسارك تستطيع

طلب أي شيء ، و مرحبا مجددا ، اما الآن فساترك حتى تكمل

تجهيزاتك ربما، كان بودي أن أمضي وقتا أطول معك في الخاص
سيد علي لكن الوقت ضيق كما ترى .

- نعم نعم اتفهم ذلك شكرا سيدتي لقد كان لطفا منك المرور
لغرفتي ، سررت بذلك اتمنى ان نمضي وقتا ممتعا و نافعا.

- بالتأكيد ، خصوصا إذا كان الضيف شخصا بارعا و واسع الصيت
مثلك سيد علي .

- هذا من لطفك .

ما أن استادرت السيدة حتى تنفس الصعداء ، لا يعلم لماذا يشعر
بالتوتر في كل مقابلة مع انه إعتاد التعامل مع الصحافة طيلة
العشرين سنة الماضية ، لكن ذلك التوتر يلازمه و الآن أكثر من ذي
قبل فهو يعلم من تكون السيدة بالغة اللطف التي كانت هنا ، يدرك
وجهها الآخر المرعب الذي يتقن جميع ادوات المبارزة و الخدع
النفسية و ذلك ما لا يتوافق مع شخصيته الصريحة و طريقته
التحليلية المنظمة للاشياء ، لا يتوافقني في طريقة إدارة الحوارات
ابدا فهدفها السبق الاعلامي و ابراز النقاط الهشة في الضيوف و
هدفه ابلاغ المعلومة كما يراها صحيحة دون تشغيبات أو تفاصيل
مربية لكنه كالعادة يستعيد رباطة جأشه و ملامحه الواثقة ربما

ابتعد كثيرا عن قاعات المحاكمة لكن ذلك النفس لا يغادره كلما
استدعى الأمر ذلك .

في غضون دقائق ثبتت الأضواء و إشتغلت الكامرات و ما أن أنهى
المخرج العد حتى بدأت لورين الحوار بإبتسامة عريضة و جلسة
تنبئ بجاهزية كبرى : " صباح الخير ، حلقة جديدة مع برنامجكم
القانون و المجتمع ، معي أنا لورين و كالعادة نتناول قضايا مختلفة
و إشكالات قانونية تهم كافة فئات المجتمع مع ضيوف مختصين
في المجال حتى نتمكن من إفادتكم و معالجة تلك الاشكالات ، أما
اليوم فموضوعنا عن فئة غالبية في المجتمع و التي تمثل عنصرا هاما
يجب حماية حقوقه و النظر في المعوقات التي تحد من نجاعة
دوره أو حسن تنشئته في ظروف لائقة ألا و هو المرأة و الطفل ،
يحضر معي اليوم ضيف مميز ذو خبرة واسعة في المجال نود
الإستفادة منها -على قدر الإمكان- ، السيد علي عبدالصبور (كالعادة
بلهجة خاصة كتلك التي في الاستقبال)، مرحبا بك سيد
عبدالصبور"

- صباح الخير ، مرحبا بك لورين و بالمشاهدين جميعا نتمنى أن تكون الإستفادة متبادلة و أن تكون الجلسة خفيفة على المستمعين.

- حتما نتمنى ذلك ، في البدء أود أن تعطينا رأيك في الموضوع الذي نتطرق إليه اليوم المرأة و الطفل و كيف يمكن أن تستفيد هذه الفئة في ظل القوانين المنصوص عليها في هذه البلد التي تنعم بقدر كبير من سلطة القانون التي نتمنى أن تعزز أكثر فأكثر .

- نعم ، لا شك كما ذكرتي في البداية ، أن هذه الفئة فئة غالبية في المجتمع و يجب النظر في قضاياها حتى نضمن إستقرارا مجتمعيًا و حصانة قانونية تحمي هذه الفئة مما قد يسبب لها أضرارا تعرقل تنشئتها السليمة أو دورها في العائلة و المجتمع ، لذلك فالموضوع أكيد موضوع مهم يجب طرقه و تعزيز المعرفة بما يكتنفه من إشكالات و كيفية معالجتها و شكرا لكم أنتم كبرنامج لفتحكم لهكذا ملفات و لكي بالخصوص .

- العفو ، هذا هو دور الإعلام و هو إيصال المعلومة بطريقة سلسة و كاملة - على قدر الإمكان - و نأمل أن نكون قادرين على أداء هذا

الدور على أكمل وجه و ذلك لا يكون إلا بحضوركم أنتم أصحاب
المعلومة الصحيحة و الخبرة أيضا.

- نتمنى أن نفيد و أن نستفيد أيضا من التساؤلات الموجهة جميعا.
- إذن نبدأ بالسؤال الأول في هذا الحوار : كيف ترون نجاعة هذه
القوانين الدفع بجودة الحياة ان امكنا القول أو في الحد مما قد
ينتهك حقوقها أو تسليط الأذى عليها؟

- لا شك أن القانون هو الوسيلة الأنجع التي يمكن أن تؤثر إما سلبا
أو إيجابا على حياة البشر جميعا إلى جانب الإعلام المرئي بكل تأكيد
كوسيلة معاصرة, سيما إذا كانت تلك القوانين مستمدة من منظومة
أخلاقية سامية ذات نوايا طيبة ، و لا يمكن أن يحيا البشر في
مجتمعات دون أن تنظمهم تشريعات تضمن لكل فرد حياة قوامها
الإستقرار و النمو في آن و السهر على أن توظف هذه القوانين
بالطريقة الصحيحة لتخدم غايتها التي من أجلها وضعت أما عن
القوانين في المملكة فهي بالتأكيد ذات نجاعة لا بأس بها أما عن
تنقيحاتها أو زيادة تطويرها فذلك مطلب لا يقف و لا شك لإتساع
نوع القضايا التي يجب التعامل معها و أهميتها لدى الفرد و

المجتمع بغض النظر عن أي فئة نتحدث أما عن المرأة و الطفل بالخصوص فالأمر أكثر ضرورة على حسب تقديري.

- جيد جدا ، لكن دعني أتفاعل مع كلامك سيد علي ، كيف يمكن أن نضمن تطبيق القانون بالطريقة الصحيحة على الافراد دون الوقوع في التصادم بين الأفراد و المؤسسات و كما تعلم في بلدان أخرى مثل باكستان و على ما أظن لديك فكرة عن هشاشة الوضع المؤسساتي هناك حتى لا نقع في مثل هكذا فجوات بين ما تريد المؤسسات تطبيقه و ما قد يصدر عن الافراد من معارضة ؟

كان يعلم انها لن تطرح سؤالاً عن التقدمية دون أن تذكره بالنعمة التي أصابها هنا في بلده و دون أن تذكره بجهل أصوله بها على حد ظنها ، لكن سرعان ما كانت الإجابة حاضرة عنده .

- دعنا لا نخوض في المقارنات خصوصاً إذا كنا نتحدث عن تركيبتين مختلفتين للمجتمعات فذلك لا يجعل الصورة واضحة ربما للمتلقي و ربما كانت أصعب فهما و إن كنت غير محيط صراحة بالوضع هناك في مثل هكذا مواضيع تتطلب التفصيل لأنني غير منخرط ضمن الفاعلين في القانون هناك كما تعلمين أنا من الجيل الأول هنا

حيث ترعرعت و تعلمت و هنا تكونت خبرتي العلمية و العملية حتى أكون أكثر إفادة .

أصبح الإرتباك واضحا على ملامحها لكنها كالعادة تستجمع قوامها الجاد حتى تتدرك ما يرمي إليه ، لقد أدرك كيف يتفادى تهكماتها الطفولية هذه .

- صحيح دعنا إذا ، نكتفي بالتركيز على التركيبة المجتمعية هنا فهي الأدعى إلى النظر في شأنها ما دمت ترى على حسب تعبيرك أن الصورتان لا تتكافآن لرصد المقاربة .

كان يعلم أنه يجب أن تنتصر لموقفها و إن كانت ترى بوضوح ما يرمي إليه و هو الأقرب للصواب حتى عبر التشويش و التغيير في الكلام .

أكمل مجيبا : بالنسبة للتشريعات فهي لا تستطيع ضمان التقيد بها إلا عبر نشر الوعي عن طريق التحسيس الاعلامي الميداني أو السمعي البصري و من ضمنه مواقع التواصل الاجتماعي التي تحتل وزنا هاما في هذا المجال خصوصا في الآونة الأخيرة و هذا لا يعني أن القانون هش بل تفعيله هو عملية لا تخضع لنظم مؤسساتية بحتة بل تحتاج لوعي يتفاعل معها في السياق المطلوب .

- جميل ، أتفق معك كليا و الآن دعنا نسلط الضوء على المرأة و تحديدأ العنف ضد المرأة ثم ننتقل للحديث عن الطفل لكن دعنا في البداية نبدأ بالعنصر البنائي الأول للمجتمع ، ماهي أهم الإشكالات التي تتعرض لها المرأة قانونيا هنا في المملكة إذا ما تعرضت للعنف الزوجي أو المجتمعي سواء كان التحرش أو العائلة ؟

- دعنا أولا نوضح نقطة هامة حول موضوع العنف ككل ، العنف بداية منشأه ثلاثة عناصر إما نفسي فطري أو تربوي أو مكتسب إجتماعيا و لعل هذه الأسباب قد تتداخل فيما بينها أو قد تفرق و الحد منه هو المثالية التي تبني عليها نماذج الوقاية أو التقليل أو المقاضاة أما كهدف ممكن الحصول فهذا شيء مستحيل تقريبا و التاريخ خير شاهد فالمجتمعات قد تبني على أنقاض الحروب فترث تلك النزعة للعنف كي تحافظ على كينونتها و للأسف دائما ما ينعكس ذلك على الأفراد فيما بينهم ثم تغذيه السلوكيات التي تأسس للعنف و التي قد يتفق على تسميتها عصابات أو أعرافا و التي قد تكون أقوى حتى من القوانين ، ثم هيكلها يتكفل الحاكم كسلطة أولى بمحاربة تلك النزاعات أو السلوكيات التي من شأنها

أن تهدد أمن المجتمع فتكون عقبة في نموه و إنتعاشته و تلك النزعات التي تخرج عن غرض الإستقرار و حفظ النفس قد تسلط على فئات شتى و منها المرأة و الطفل موضوع حديثنا اليوم إذن الإشكال قديم و له تاريخ تراكمي تطوري ، أخشى أن أكون أطلت لكني رأيت أن هذا التمهيد مهم حتى نضع المستمع في الإطار .

بابتسامة شديدة الرضا تجيبه لورين :

-بالعكس سيد علي أظن أن المستمع كان مثلنا جميعا أنا و الإعداد أيضا قد أحسنا بتلك الإحاطة الشاملة بالموضوع ووضعتنا حقيقة فالإطار و كما يقال على الوجهة الاساسية لجلستنا الحوارية هذه تفضل أكمل .

كأنه كان ينتظر تلك الكلمات بفارغ الصبر حتى يلج الباب من واسع و براحة أكبر :

-شكرا على الإطراء الذي لا أظني أستحقه ، نكمل إذن أردت القول مواصلة لما قد كنت بدأته إجابة على سؤالك ، فالمرأة قديما لعصور خلت منذ آلاف السنين كانت مواطنا من درجة ثانية بالتعبير الحديث فهي آلة للمتعة و الإيناس في المجتمعات التي لم تكن تأسست على شرائع سماوية بل كانت في إحدى الشعوب تورث

مع جملة المتاع لأنها أولى المجتمعات التي تقوم على قوانين إلهية
و تلك الشرائع قد كفلت لها حقا يمنع التعدي عليها أو الإضرار
بحقوقها وإعتبارها مكونا هاما داخل الأسرة و المجتمع.
كان لا بد أن تثب هنا حتى تقوم بتحويل سياق الموضوع نحو ما
تريد :

- عذرا على المقاطعة أستاذ لكن دعنا نلتزم بالاطار القانوني بعيدا
عن الروحانيات التي قد يلتبس على فئات كبيرة من المستمعين
فهمها و التي قد لا تكون من أهتمامتهم أو قد لا يفيدهم سماعها
لكني كنت اود أن تشرح من زاوية نظرك ما تريد أن توضحه لكني
ملزمة بالتنويه لهكذا منعطفات حتى يتسنى لنا التطرق لفئة أكبر
من الاسئلة التي تخدم إشكالات المستمعين من متابعي البرنامج ,
تفضل رجاء و عذرا مجددا لكن ذلك كان مهما حقا.

يدرك جيدا ذلك الإمتعاض من ذكر الشرائع في أي حوار خصوصا
إعلاميا سوى من التهكم طبعا أو المناسبات الرسمية في مرور
خاطف لكن تعليقها هذا لم يمنعه من إكمال ما بدأه دون أن يبدو
عليه الأرتباك حتى.

بابتسامة ذات إدراك عميق :

-شكرا على التنويه لكن أظن أن الصورة لم تكتمل حقيقة لديك
ربما لبعض التسرع المبرر في تسليط الضوء على صلب الموضوع
كما أسلفتي لكن الحديث ليس تاريخيا و لا من قبيل الثقافة العامة
حتى فليس هذا المجال لسرد هكذا فصول و لكن الأمر متعلق
بتركيبة القانون تاريخيا إلى هذه الساعة التي نتحدث فيها و أخشى
أن نثير قلق الكنيسة بالمناسبة لما قد يفهم تقريبا من دورها في
حل الإشكالات التي تتعلق بالعنف الزوجي خصوصا و التي تريدين
أن نوضح ما يدور في نطاقها مما قد يخدم إستفسارات
المتابعين فإذا كان في ذلك ما يتعارض مع خط الإعداد فلننقل
فقط الجزء الذي قد يتماشى معها .

يختم كلمته بضحكة ساخرة يعلم كم الإرباك الذي سببه لها كأنه
يرد لها ذلك المستهل الساخن الذي وضعته فيه ، بارتباك واضح
تتلعثم قائلة :

- أظني أسئت الفهم و هذا وارد و لعله جزء من التفاعل مع الاستاذ
علي حتى يتسنى لنا إيضاح الصورة كما هي و فيما يخدم الغرض و
هذا ما يحتم علي الانتباه إليه ، آسفة على المقاطعة أستاذ علي
رجاء نكمل الإجابة على نفس السؤال .

يهز رأسه في ظفر مستلما دفة الحديث :

- نعم أدرك ذلك جيدا و هذا هو المقدم الجيد ، نكمل إذن ،
فالإنتقال أصلا للكلام عن قوانين و ما يمكن لتلك القوانين أن تعالج
من معوقات أو تنظيم سير المجتمع على نموذج معين لا يخدم
فقط الأغراض الفردية للإنسان بل هدف مجتمعي مشترك لم يكن
موجودا حتى و هذا ما وجب بيانه حتى نعترف بجميل وجود تلك
الشرائع التي مكنتنا اليوم من التطرق لباب سن القوانين حتى لا
تكون الحياة المجتمعية حياة تقوم على الشهوة الفردانية أو فرض
سيطرة شق من الأفراد الذين يمتلكون القوة على ضعافهم بل
أعدلهم و أشدهم إلزاما بالدستور العام بالتعبير المعاصر .

فجأة تتخذ موقع أفراد المخابرات فتوجه له أسئلة مباشرة و
بإبتسامة هي أقرب للعبوس:

- حسنا ذلك هو المطلب الآن الذي أظننا نشترك في الرغبة في
حصوله لكن حسب تقييمك و أنت رجل قانون و أعمق خبرة هل
هذا الأمر حاصل الآن بمعنى , هل ما يغلب على القوانين تغليبها
لمن هو أحق بالسلطة ضمن الأفراد أو أحق بالإنصاف في
الخصومات أو النزاعات التي تعترضهم.

يجب بلكنة تنم عن التهكم يستهلها بإبتسامة مستغربة:

- لا شك نعم لكن كما أسلفت القانون ليس مكونا جامدا هو آلة تحتاج للصيانة إن صح التعبير أو التحديث إذا ما بدى عليها القصور في تحقيق الغرض الصحيح من وجودها و عادة ما يكون ذلك فيما هو مستحدث من التطورات الديمغرافية و العلاقات التي تتخذ أشكالا أكثر مراعاة لتفاصيل لم تكن قديما أما الأصل المشترك الذي بنيت عليه أولا فذلك ما لا يجب أن تطاله الأيدي بشيء من التغيير فهو عبارة عن نزع حجر الأساس من البناء كاملا مما يؤدي إلى سقوطه جملة.

تعلق بإرتياح مستهجن

- جميل , هل ترى إذن أن النصوص القانونية الموجودة اليوم تحد من العنف المسلط على المرأة سواء في البيت أو في العمل أو حتى الشارع ؟ على حد تقديري المتواضع الأمر يزداد سوءا خصوصا مع ارتفاع الإستغاثات من الجمعيات النسائية و الفاعلين في المجتمع المدني إلى كم السعار المتفاقم ضد تطويع المرأة لنظام أبوي فوقي , لا ننكر أن هذه النظرة هي نظرة رجعية تناهضها القوانين الموجودة لكن روح المجتمع قد تنبض بها في بعض الأوساط

خصوصا مع ارتفاع الجاليات الوافدة أظن و ما قد تحمله من أفكار
مناهضة بعض الشيء لا أقول جميعها للنموذج الموجود فالأمر
يبدو حديثا بعض الشيء.

يا لكم العجرفة التي تلفظت بها دون إكتراث لمبدأ حسن الضيافة
على الأقل أو الحد من خطاب الكراهية على الأقل , لكنه كالعادة
كان جاهزا بالرد:

- دعيني أنه فقط لشيء , الوافدون كما أسلفتي ليسوا جميعا سيئين
حتى لا نفهم خطأ, ثم الوافد يجد نفسه محاطا بنموذج كما سبق
قانوني و مجتمعي يجب عليه إتباعه حتى و إن كان معارضا لثقافته
أو طريقة تربيته التي تلقاها في بلده الأم و حتى لا ننتقل بالموضوع
للحديث عن مشاكل الإدماج و الوافدين و ما يحفها من الحوارات
التي تهتم بذلك الشأن, أود إيضاح شيء مهم و هو أن الأمر ليس
حديثا بل هو إشكال قديم أدى لصراعات كبرى بين ثلاثة أقطاب
هنا, الحكم و القانون و الدين , فحين كان الحاكم يرى بنظر الكنيسة
كان للمتورين رأي آخر ضدهما و لا داعي للتفصيل هنا لبشاعة ما
قد يقال و ليس هذا المطلوب و لنقل الصورة المعاصرة التي أظنها
أفضل و أظنك على علم بالصورة التي أود التلميح إليها على ذكر

النظام الأبوي الرجعي فقد مضى عليها قرون ليست بالبعيدة و لا زالت بعض جذورها عالقة إلى اليوم في صلب المؤسسة الدينية هنا التي تسعى لإيجاد مخارج للقضاء على ما تبقى منها. تهز رأسها موافقة على تجاوز هذا الجزء من القضية المطروحة خجلا مما كانت أوردته , كان مستمتعا برد تلك السهام التي تراشقه بها دون إنذار.

- أما بخصوص الموجة المتزايدة من العنف بكافة أشكاله ضد المرأة فذلك يرجع لعدة أمور منها النظرة السائدة أن الغول النسوي آخذ في التزايد فيجب الحد من إستشرائه عند البعض ممن يرون أننا قد تجاوزنا المكافئة بين الجنسين إلى تفضيل المرأة أو إعطائها حقوقا تظلم الرجل الذي لا زال يعتبر العائل الأساسي في الأسرة على الرغم من أن ذلك ما يتفق علنا عن تجاوزه أو هو صورة قديمة يتشبث بها البعض إتزاما بالموروث المجتمعي القديم و لكنه في الحقيقة لا زال النظرة النسائية التي يقيمن من خلالها الرجل او كفاءته حتى يكون شريكا مناسبا و هو ما يرجع عليهن بالضرر لا أقول ذلك تبريرا للعنف الحاصل لكن تلك الإزدواجية عند ثلة من النساء تتسبب في إحتقان في العلاقات يصل حد تعرضهن للعنف

أما الثاني و هو التطرف السلوكي الذي يرى بإخضاع المرأة للرجل ككائن أعلى درجة أو أحق بالتحكم أو الإدارة لا الحماية و أما الثالث فهو السعار الجنسي المتزايد الذي يؤدي إلى الإغتصاب أو التعنيف الجنسي و من أسبابه تسليع المرأة ضمن التسويق للماركات و غيرها من المنتجات التي يتم ترويجها عبر المواقع و في الشاشات , و لا شك أن القوانين الموجودة رادعة و إلا لكان الأمر أكثر سوءا لكنها تحتاج لمزيد من التكريس و نشر الوعي حول الأسباب الآنف ذكرها حتى تتضاءل الحالات المحصاة سنويا عن هذه الكوارث المدمية للقلوب.

- إذن تحدثت عن الغول النسائي كما وصفته , هل ذلك يعتبر إقرارا ضمنيا بلسان أشخاص آخرين عن معارضتك للخطاب النسوي ؟
عذرا إذا طرحت السؤال بصفة شخصية لكن ذلك مهم حقا فهل يوجد من الفاعلين في القانون من يعمل ضد الطرح الحقوقي لما يهم المرأة و أرجو ألا تعتبر ذلك إتهاما على العكس مجرد إستفسار كان لا بد من أن أطرحه في سياق خدمة الموضوع الذي نتناوله اليوم بالتحليل ؟.

تستمر في دور المقاضاة كأن الأمر أصبح يتخذ طابعا شخصيا مقمينا لكن ذلك لا يثنيه عن رد ما يدور في خلدنا من تهم مسقطه بين السطور.

- لا داعي للإحراج فالأسئلة بكافة أنواعها مشروعة مهما كانت حساسيتها وإلا فلن يكون الحوار مثريا أو تنويريا على الأقل لما يدور في أذهان المستمعين, كما هو واضح من كلامي سابقا أني أتكلم كمحايد أصف الصورة كما هي كتشخيص عام للأسباب ومآتها لكن رأيي الشخصي حول نشر الوعي بالحقوق النسائية التي يجب المطالبة بتثبيتها أو حمايتها قانونيا فذلك مما لا شك أني من المدافعين عنه بل و الساعين في تحقيقه فلدي أم و زوجة و إبنة فلا يسعني إلا أن أسعى لزيادة حمايتها و نفعها فالمجهود الشخصي لن يكون كافيا دون إحاطة قانونية و مجتمعية , أما كناقدا لما يحدث في كواليس الدفع بالحقوق النسائية نحو الهيمنة النسائية فذلك ما أنبذه شخصيا دون مداراة عندما تسعى النساء إلى تقنين توصيفات جائزة للتعدي و تسليط عقوبات تتعدى الحد في الإنصاف فذلك يحدث خلا في الموازنة الحقوقية بين الجنسين اللذان لا غنى

عنهما في تركيبة الأسرة كنواة أساسية يرتكز عليها المجتمع دون إنحياز لفرض السيطرة الذكورية التي تتعدى الحماية كما أسلفت.

- جميل أشكرك على الوضوح سيد علي و إن كنت لا أتفق كليا مع بعض الألفاظ لكنك كنت عادلا بما يكفي للإطمئنان عما يدور في الجانب القانوني و نجاعة أفراده في القيام بالمسؤولية التي تقع على عاتقهم في تكريس الحقوق و رد المظالم التي تتعرض لها النساء في هذا البلد و ما أعجبنى حقيقة فيما أسلفت أظنه نال إستحسان المشاهد أيضا تنويهك على أن يكون الرجل حاميا للمرأة لا مسلطا عليها , و أظننا إستوفينا على الأقل الحديث فيما يخص الفئة الأولى مما إستطعنا صياغته من إستفسارات و إلا فالمواضيع أكثر من أن تحصى فيما يخص المرأة كعنصر هام في دورة المجتمع , ننتقل للحديث عن الطفل و أود أن نفتتح الحديث كما فعلنا مع المرأة , ماهو الإطار الذي يمكننا وضع الطفولة فيها على الصعيدين القانوني و المجتمعي برأيك ؟

يدرك جيدا أنها لن تترك المجال للحكم على نظرتها النسوية المتطرفة و ما قد يطالها من إنتقادات فتجعله هو واجهة لما قد

يطلق من إنتقادات بعد الحلقة يا لكم التلاعب الذي تجيده لكنه يشعر بالإرتياح لعدم تمكنها من ذلك.

- نعلم جيدا أن الأطفال هم التواصل الطبيعي لوجود المجتمعات أو إنقراضها و هم من يحملون نتاج الأفكار التي تنتجها حركة الوعي بقضايا معينة أو نموذج سلوكي معين أو أحداث بعينها بمعنى هم الورثة لما نتجه نحن الكبار من أفكار و الطريقة التي نتفاعل بها مع الأشياء , و هم من سيقومون يوما بتنقيحها أو إلغائها أو الإلتزام بها في سياق التطور الطبيعي للكيان البشري و المدني و هم أيضا الحلقة الأضعف على قوة فاعليتها لذلك كان الإعتناء بنشأتهم و المحافظة عليهم أمرا بالغ الأهمية فما بالك بما قد يطالهم من الضرر أو التهميش على أشكال مختلفة إما التجهيل المقصود أو التعنيف بكافة وسائله اللفظية و المادية أو الفاقة لما يجعلهم أشخاصا أسوياء فكريا و سلوكيا .

تهز رأسها إستحسانا

- كالعادة سيد علي تقوم بإدهاشنا بهذا مستهلات حقيقة ملمة بجميع التفاصيل , تفضل أكمل أرجوك لم أود المقاطعة لكني لم

أستطع إلا التعبير عن إعجابي الشديد بطريقتك في صياغة الأطر
الصيحية للعنصر المطروح.

يتهلل لذلك , يبدو أنها قررت أخيرا إرخاء الحبل عن رقبته كعنوان
لإطلاق سراحه من دائرة الإتهامات التي كادت تطل من رأسها لولا
ما يفرض عليها الإلتزام به إعلاميا من إبقاء شيء من المساحة لإيراد
الأفكار.

- هذا لطف منك شكرا على هذا التقدير الذي لا يسعني إلا أن أكون
مسرورا به و إن كان يضعني تحت مسؤولية أكبر في لتبسيط
المعلومة و جعلها في قالب أكثر إستساغة و قربا للفهم .

يمر لها الكلمة حتى تطرح الأسئلة التي سيقوم بالإجابة عنها تباعا
- و أظنك لن تخذلنا كما أسلفت , إذن السؤال الأساسي أظن لن
يكون حول العنف الموجه للأطفال و إن كان مهما و هو بالتأكيد
ضمن سلسلة العنواين التي يجب أن نستوفينا من معلوماتيا لكنه
سيأتي معنا في مرتبة ثانية و أما التساؤل الملح هنا فهو هل هناك
وعي كاف بحقوق الأطفال مجتمعا بمعنى هل هناك مطالبة أسرية
من كلا الأبوين أو أحدهما على الأقل أو أحد أفراد الأسرة عموما
بالإنصاف القانوني لمن يتعرضون من الأطفال طبعا لإنتهاكات تخل

بإستقرارهم النفسي أو تعرضهم لعنف مادي بكافة توصيفاته وأعني منها على وجه الخصوص التنمر أو الإمتهان الجنسي .

- حسنا لا يمكن القول أن المطالبات غير موجودة أو ضئيلة لكن الإقبال عليها صراحة يمر بمسار معقد بعض الشيء فالكائن الذي نتحدث عنه على قدر بساطته لكن حجم التعقيدات التي تحف ملابسات الصعوبات التي تعترضه كبيرة جدا خصوصا لقلة إجادة الأطفال للتعبير عما يتعرضون له, ثانيا سرعة الحياة و الإشكالات التي يتعرض لها الكبار في سبيل إعالة الأسرة أو المحافظة على الإستقرار الأسري قد تفضي إلى شيء من التغافل عما قد يتعرض له الطفل داخل الأسرة و خارجها ضمن محيطه التفاعلي المدرسة, الشارع, الجيران, الأصدقاء, مما قد يصل إلى اضطرابات سلوكية تصعب معالجتها حتى عبر التأهيل فكما يقال الوقاية خير من العلاج لذلك كما ذكرت التحسيس ثم التحسيس لا يمكن إيجاد إطار قانونية كفيلة لوحدها بالقضاء على هكذا آفات بل إلى جانب الوعي و هو ما يكفل نجاعة الحماية القانونية للأطفال .

- صحيح أتفق معك كليا يبدو أن المساحة التي تترك للأطفال أقصد لمعالجة القضايا المحيطة بهم ضئيلة مقارنة بما يجب أن تكون

عليه و ربما من أسبابها كما ذكرت الاهتمام المبالغ فيه بقضايا البالغين دون من هم أصغر سنا أو في فترة حساسة يجب الإنتباه لما يشوبها من مدخلات حتى نتمكن نت تنشئة جيل أقوم و أكثر صمودا أمام التحديات العامة للمجتمع و ربما هنا أود التعليق بكلمة و هو أن المبالغة في الاهتمام بالطفل هو في الحقيقة إهتمام بالجيل الذي سيتقلد قضايا المجتمع لاحقا على جميع الأصعدة فرجائي لكل من يتابعنا , إنتبهوا لهذا الأمر فهو في غاية الجدية .

ربما كان حريصا في عدم إبتلاعه لأحد الطعوم التي ترميها له لكن كلامها بالغ الأهمية في نقاط عديدة كهذه النقطة مثلا يضيف معلقا

- أضم صوتي لك و لمن يهमे هذا الأمر فالواجب رفع صفارة الإنذار كما يقال حول الموضوع لغاية أهميته كما أريد القول أننا لا نستطيع إلى الآن بلوغ الصورة المطلوبة في أن يكون الفاعلون في مجال حماية الطفل ضد التعنيف أشخاصا غير متطوعين بل مكرسين في أغلبهم من المؤسسات المدنية الحكومية أو من ينوبها و هي حقيقة قد تبدو مؤسفة بعض الشيء لكنها مبشرة أيضا بإمكانية

بلوغ تلك المرحلة و هي أيضا تنم عن وعي متزايد بواجبنا نحو هذه الفئة .

- حقا هذا المسار الذي يجب علينا البلوغ به إلى مرحلة متقدمة تكفل شيئا من الأمان أو المعالجة للحالات الموجودة و لما لا إستحداث أطر أشد صلابة و أوسع إنتشارا عبر المملكة , و دعني هنا أطرح التساؤل الثاني ماهي أسباب العنف الذي يتعرض له الطفل برأيك و هل الأطر القانونية الموجودة قد حققت نجاحا على الأقل مقارنة بالحالات الموجودة في حماية هذه الفئة ؟

- حسب تقديري الأطر القانونية موجودة و هي و صفا يجب أن تقوم بذلك لكننا على الأرض الواقع لا نستطيع التأكيد على ذلك فمراكز التأهيل السلوكي في تزايد جراء العجز عن تجاوز الأثر النفسي و المادي للتعنيف الذي قد تعرضت إليه عديد الحالات عدى عن إنصافها قانونيا فالثغرات التي تمكن الجناة من التهرب في مثل هكذا جرائم عديدة لذلك فالقلة القليلة من تستطيع إستيفاء حقوقها قانونيا لذلك أسلفت منذ قليل أن ماهو مؤسف هو في جانب آخر يدعو لبعض الأمل و هو ما لا تستطيع ربما المحاكم بلوغه لإتساع النص القانوني الذي يعتمد عليه في توجيه التهم بتوصيف يحاصر

الجنة جزئي تقوم بتلطيف هذه الخيبة المؤسسات ذات الصيغة التطوعية من جمعيات و مراكز .

- مؤسف حقا سماع مثل هكذا أشياء تدعو إلى القلق حول الحالة القانونية التي يجب تحسينها عبركم كفاعلين و جب عليكم رفع الإستغاثات حول ما يعترضكم من قصور في إنصاف المظلومين و هو ما يشعركم بالخيبة أكيد في عدم تمكنكم من بلوغ الهدف الأسمى و هو العدل و إعلاميا أيضا و أوجه كلامي لنفسي أولا و للزملاء القائمين في مجال الإعلام ككل و أختتم بسرعة بسؤال ثالث و مهم أيضا , هل ماهو موجود من نصوص قانونية قادر على الحد من بوادر تعرض الأطفال إلى الإعتداءات من داخل أو خارج الأسرة بمعنى هل هناك حد لتدخل المحيط الأسري في طريقة تنشئة الأطفال بما يعارض النموذج المفروض مجتمعي و هو الأنسب طبعاً للتنشئة السليمة و الإحاطة القوية بهم؟

- هذا سؤال بالغ الحساسية لأن العلاقة بين الطفل و الأسرة لا شك حساسة بين المبتغى المدني و المبتغى الأبوي و الأسري عامة إذا أردنا التحدث عن نطاق أوسع , الحقيقة لا يوجد صيغ واضحة في الحد من تدخل أحد الأبوين أو كلاهما أو من يقوم برعاية الطفل في

العموم بأسلوب المعيشة التي ينشئ عليها أطفاله إلا في صورة قيام الطفل بتظلم عبر أشخاص من خارج الأسرة إذا شعر بالخطر و خصوصا هنا التعنيف حينها فقط يمكن التدخل قانونيا و هنا وجب التعرّيج على نقطة مهمة يا حبذا لو نسعى في إيجاد صيغة تمكننا من الجمع بين مراعاة الصلابة التي يجب أن تكون في العلاقات الأسرية التي تشهد هشاشة متزايدة و فردانية مرعبة تحد من دور العائلة في حماية الفرد مما قد يناله من إنتهاكات و بين الحد من التدخل الجائر للعائلة في تشويهه ربما النموذج السليم في التنشئة و هو محتمل خصوصا إذا كان هناك إضطراب سلوكي للمتدخلين في دور الرعاية .

- و هل إذا قام المتضرر بالتشكي على من يتولى رعايته , هل في غالب الأحيان أقول ذلك تبعا لما أدرجته على المشهد القانوني في هذا السياق , هل يتم إنصافه أو ردع الإعتداء عليه مجددا ؟

- من المؤسف أن الأمور في الغالب تزداد سوءا إما زيادة في الإعتداء أو يتولى كفيل إذا كان مركز رعاية أو عائلة كفيلة برعاية المتضرر أي حصول تفكك في الأسرة و هو ما جعلني أورد التعجيل في إيجاد صيغ أكثر وسطية تردع الإعتداء و تجبر الطرفين على خوض دورة إعادة

تأهيل على التواصل البناء مثلا حتى لا تخذش تلك العلاقة بين الآباء و أبنائهم .

- أتفق معك كليا , أضم صوتي إلى صوتك أستاذ علي مطالبة بما يسد هذه الفجوة بين تفعيل القانون و المحافظة على العلاقة الطبيعية بين أفراد الأسرة و دعني أورد ذلك عموما حتى نشمّل علاقة الأخوة أيضا.

- نعم سيكون ذلك أفضل, شكرا على الإضافة لورين

تدير وجهها نحو الكاميرا المواجهة لها معلنة نهاية البرنامج

- إلى هنا نصل إلى نهاية برنامجنا القانون و المجتمع متمنين لكم مشاهدة طيبة لجميع البرامج التالية , أتقدم بجزيل الشكر لضييفي الأستاذ علي على ما قدمه من معلومات قيمة إجتماعية و قانونية مشكور أستاذ علي

- العفو , شكرا على الإستضافة مجددا و أتمنى أن اللقاء كان مفيدا للمتابعين .

- العفو , كانت هذه لورين معكم عتم مساء و مشاهدة طيبة مجددا.

وضعت السماعة و أخذت نفسا عميقا كأنها كانت تتحدث دون
نفس , تبدأه بإبتسامة عريضة مستفهمة :

- كيف كان اللقاء أستاذ علي ؟

- كان جيدا جدا على حسب تقديري ما رأيك أنتي ؟

- كان في جعبي أكثر مما قد طرحته لكن ضيق الوقت لا يسمح ربما
تسمح لي بلقاء خاص نتجاذب فيه بعض المواضيع التي أود طرحها
عليك شخصيا , هل تمانع ؟

- على الرحب و السعة حدي أي وقت تريدين و أنا بالخدمة هذه
بطاقتي مجددا إذا أردتي زيارتي بالمكتب
- شكرا حقا هذا كرم منك

كم يدرك التكلف الواضح في عبارات الشكر هذه لكنه يرد مماثلة
- العفو نحن بالخدمة دائما

غادر مبنى القناة متوجها للمكتب كعادته لمراجعة البرنامج
الصباحي للغد و كالعادة كان متأخرا و عليه أن يراجع جميع الملفات
التي لا يسمح لأحد بمعرفة تفاصيلها لما فيها من حساسية يتركها
على المكتب كل صباح حتى ينطلق في مشاغل خارجية ثم لا يرجع
من ذلك إلا منهكا لقد أصبح الأمر يمثل عبئا على عاتقه يجعله

يتأخر ليلا و قد بدأت آثار السهر الجانبية تظهر عليه تشتت في التفكير و ضعف في النشاط يبدو أنه يحتاج لأحد يوليه هذه المهمة لكن ذلك الشخص يجب أن يكون مميزا بعض الشيء ليس من جانب الثقة فقط بل من ناحية الأخلاق أيضا فالأمر يحتاج إلى صبر كبير و حكمة بالغة قل إيجادها في شباب هذه الأيام حتما لا بد له من ذلك الشخص و إلا فسيضطر لتجشم ذلك العبء وحده و هو ما لم يعد يحتمله لعوامل السن و كثرة المسؤوليات التي لا تترك له مساحة أبدا فهي تحاصره من كل مكان.

مهلا ... ذلك الشاب التونسي يبدو هذبا لكن لا بد من إمتحانه بعض الشيء لم يقابل شابا مثله بتلك الأخلاق العالية حتى عند الخصام يتمتع برباطة جأش غريبة ثم يبدو عليه الكتمان و الإعتماد الكثير على الذات سيكون جيدا ثم إنه كان قد أخبره بما يعترضه من صعوبات فليكن هو الفرج الذي ينتظره لكنه لم يملك أدنى معلومة تمكنه من الإتصال به.

يصل أمام البناية التي بها مكتبه

يا للصدف ...

فراس ..

يرتمي بين يديه ممازحا :

- مرحبا أيها الشاب الوسيم

يرفع رأسه مبتسما :

- أستاذ علي .. عذرا أخي علي أليس كذلك ؟

- نعم هو كذلك كنت ستعرض للتوبيخ لو لم تتدارك

يجيبه ضاحكا

- نجونا إذن

- و هو كذلك

- تفضل معي إلى المكتب هنا في الطابق الأول

- في الحقيقة أنا آت إليك خصيصا

- هذا يوم حظي

- شكرا جزيلا أظنك تبالغ

- لا بل هو كذلك فلنصعد ثم أحدثك بالتفاصيل

يصعدان الدرج المؤدي إلى الطابق الأول ينعطفان يمينا ثم يلجان الباب الخارجي للمكتب حيث صالة كبيرة للضيوف في مقابلها مكتبان متلاصقان كتب على أحدهما الإستقبال و الضبط و الآخر المالية ثم ممر صغير بجانبهما على جانبه الآخر ثلاث مكاتب لكل منها نوع من القضايا الذي تدرسه و في آخر الممر باب يحمل إسم الأستاذ علي دون إضافات و هو أمر غريب بعض الشيء فالعادة تقضي أن يكتب " المدير " بخط كبير و عريض حتى يتسنى للجميع الإنتباه عند الدخول أمر غير مألوف بعض الشيء لكنه لطيف.

- الجميع مشغول الآن تفضل معي للمكتب

يتبعه في الممر المؤدي إليه يدخلان المكتب , بسيط جدا لكنه يوحى بالفخامة في آن طاولة من الخشب الإنجليزي ورائها خزانة عظيمة تحمل ارشيفا كبيرا و على الطاولة حاسوب و الشعار الغريب هلال و بداخله ميزان.

أمام الطاولة كرسيان وثيران على عكس الكرسي الذي يجلس المخصص له هو كرسي خشبي عادي إلى حد ما لكنه يحمل تدرجات على جانبيه توحى بالفخامة على يساره أريكتان محدبتا الشكل زرقاوتان مريحتان للنظر و سجادة بنفس اللون مع طاولة

بلورية بيهما على الحائط المقابل على اليسار معرض صغير للشهائد التي حازها و بعض الأوسمة و شيء ما في الركن شيء يعرفه جيدا سجادة صلاة محاطة بسياج للزينة , على بساطة المكان إلا أن الألوان التي فيه و الإضاءة القادمة من النافذة الواسعة وراء الأريكة تجعله مريحا و هادئا تطل النافذة على حديقة صغيرة أسفل البناية من الجانب الخلفي كعادة البناءات هنا .

- ها ما رأيك تفضل بالجلوس أولا هنا أم هناك يقصد قبالة المكتب أم على الأريكة ؟

- كما تريد

- إذن دعنا نجلس في مكان الضيافة ستعتاد جلسات العمل لاحقا لم يفهم شيئا لكنه تبعه في خجل إلى حيث الصالون الصغير على اليسار

إرتدى متهالكا على الأريكة و أشار له بالجلوس قبالته

- تفضل تفضل فراس أرجوك لا تكن خجلا

- شكرا أخي علي هذا من كرمك

- أي كرم يا رجل تفضل

- إذن قلت لي أنك قادم لمقابلتي كيف أخدمك ؟

صمت قليلا مطرقا رأسه إلى الأسفل

- ما الذي يشغلك حدثني بالله عليك أظننا أصدقاء أليس كذلك ؟

- بالتأكيد , لكن لا أعلم كيف أبدأ الحديث

- مثلما تريد ليس هناك ديباجة موحدة هنا

كالعادة لا يغادره حس الدعابة و هو ما يخفف عليه وطأة البوح

بحاجته له

- في الحقيقة ...

- حسنا سأبدأ أنا , هل تعلم لماذا قلت لك يوم حظي منذ قليلا لم

أكن مازحا في الحقيقة أنا أحتاج لأحد يمسك عني بعض الملفات

يقوم بمراجعتها و وضعها ضمن قائمة المهمات على حسب

أهميتها و لم يدر في خلدي إلا أنت كنت طوق نجاة بالنسبة إلي

لكني سرعان ما أحبطت حين علمت أنني لا أستطيع التواصل معك

فلم تترك لي حتى رقم هاتفك لقد كان ذلك سهوا مني فما رأيك ؟

يا إلهي ما هذا اللطف الإلهي الذي يحفه لقد نطق بما يريد فقط

كان يتجرع مرارة الإرتماء على أحد العابرين في حياته صدفة دون

سابق دراسة و لا حتى توصية رسمية تخفف حدة اللقاء .

- بالتأكيد يمكنني ذلك في الواقع لقد كان ذلك ما أتيت لأجله فلقد

نطقت بما كنت أنوي قوله

- إذن إتفقنا متى يمكنك البدء؟

- متى ما أردت

- مذهل أظني سأحتفل لهذا الخبر السار

ثم يرمقه في إبتسامة أبوية حانية تزيد من خجله.

كان الغزو الأمريكي على العراق في أوجه مما إضطر العديد لطلب

اللجوء هنا و الأخبار السيئة كانت متزايدة تملء جميع الصحف و

الشاشات لتغطية الأوضاع هناك , أمر يقلق المواطنين هنا عن

كيفية التعامل مع الوافدين و ماهي الأخطار المحتملة التي قد

يتسبب فيها قبول كل هذه الأفواج التي ستزاحمهم على فرص

العمل و ربما المعيشة مما يشغل الرأي العام حول مناقشة جميع

الإستفهامات التي يجب التعامل معها حتى تكون العملية مدروسة

و سلسلة.

ماجدة من عائلة عراقية عانت ويلات التهجير إبان الغزو الأمريكي للعراق قدمت مع الدفقات الأولى من المهجرين لم تكن متعلمة صحيح لكنها كانت شغوفة بالتعرف لكل ما هو جديد , لا تعلم شيئاً عن زوجها بعد أن حالت بينهما القذائف دون إستئذان حتى تعبت بكل منهما على حدة لا تعلم عنه شيئاً سوى أنه ترك لها إبناً كي ترعاه في ظل هذه الظروف المليئة بالرعب و الوحدة , كان يجب عليها إتخاذ القرار بالفرار إلى مكان أكثر أمناً حتى ينعم إبناً ببعض الاستقرار عوض الليالي البائسة التي كان يعيشها تحت القصف , طفولته لم تكن كتلك التي عاشتها هي مع أطفال الجيران و بين بيوتهم و الألعاب التي كانت تصنعها الأمهات من أدوات المنزل كان عليه أن يشاهد الدماء في جداول و أما أهازيج النسوة في الأفراح فقد إستبدلها بعويل الثكالي و المكومين فكيف له أن يروي طفولته فيما بعد دون أن يذرف من الدموع ما يسقي الأرض الجرداء و إن كان يزال لا يدرك شيئاً من ذلك لكن الأمر أخذ في التطور و ربما شمل ذلك شبابه أيضاً كل تلك المشاهد كانت تغزو مخيلتها فتذرف الدموع الحارة على عائلة مبعثرة و ابن لم يذق طعم الدفئ و الأمان .

كان ذلك الإبتلاء أعظم ما قد تصادفه امرأة وحيدة حين كان على الرجال أيضا أن يبكوا لا النساء فقط فالجميع بين إحتضار أو فقدان أو إفتراق هذه هي الأحوال التي يعيشها الجميع , لم تعد للحياة وجهة يسير فيها الناس كعادتهم بل حالة من الهلع و التصادم كتلك الأنعام التي تفر هربا من الضواري إذا ما جاءت للدماء هكذا كان المشهد هنا في البصرة و جميع المناطق المتاخمة لها .

لا يسمع إلا نداءات الإستغاثة و الهجرة و التخيم أقصد فقد المنزل بين ليلة و ضحاها لكن تلك الألفاظ تخدش تلك الكرامة التي تتبعثر كلما نزلت قذيفة أو إستشهد من سكان الحي أحد أو آحاد تلك الصرخات التي تذهب بلب العقول و تخزن في الذاكرة لن تنسى أبدا. كانت قد تقدمت بطلب لجوء بعد محاولات عديدة تلقت إثرها عديد الإهانات و التسويات التي تركتها لمخيلتها عما قد يصيب وليدها من الضرر أو الفقد لم يكن خوفها على نفسها لقد كان جله على إبنها الذي لم يتبقى لها من عائلتها الممتدة و الصغيرة سواه يسد ذلك الفراغ الكبير الذي تركه غيابهم في قلبها , لا يمكن لأحد تصور كم البشاعة التي تبتلعها في كل يوم يمضي بين إيجاد المأوى و

اللحمة التي تسد جوعها و تمن على وليدها ببعض اللبن حتى تهدأ
أمعاءه الصغيرة و يغفو .

لقد أصبحت صور الفرح و المستقبل البهيج الذي خطت ملامحه
مع زوجها و عائلتيهما صورة متفحمة ملطخة بالدماء و الدموع
تحت ركام البيت الذي أصبح رمادا بعد أن سوته القذائف أرضا حتى
تحتل أطياف الفزع و قلة الحيلة مكانه , يا ترى متى ستنتهي هذه
الحرب الغاشمة متى ينزل غيث السلام حتى تخضر الحياة مجددا
و تستعيد ثوبها البديع.

تحصلت أخيرا على موافقة على طلب اللجوء إلى بريطانيا , بلد لا
تعرف سوى إسمها أو ما شاهدته في التلفاز عنها عند الجيران فلم
تكن تملك جهازا في بيتها كانت تنحدر من عائلة أقل من المتوسط
لكنها مليئة بالرضا والقناعة و السعادة , ستسير في طرق لا تعلمها
و سيكون عليها التعامل مع أشخاص غرباء لا يشبهونها في طريقة
كلامهم و لا لباسهم و لا عيشهم لكنها ستتحمل ذلك في سبيل أن
لا يتسنى لإبنها إدراك شيء من المأساة هنا و التي تتمنى من الله أن
تزول قريبا .

تذكر جيدا ذلك اليوم الذي وطئت فيه قدماها مطار ستانسند ,
كان الأمر أشبه بالمرور إلى بلد العجائب شكل حياة مختلف كليا
عن تلك المساكن الشعبية التي تعرفها و حتى شكل المطار الذي
تعرفه , أشكال النساء و هيئاتهن و حتى الرجال هنا مختلفون عن
أولئك الذين تعرفهم هناك , كانت تشعر أنها إسقاط على المكان أو
لربما لمحت شيئا يمكن أن يشبهها هنا أو هناك لكنه كالطيف يمر
سريعا ثم تلك النظرات المتجهمه التي ترمقها في إستهزاء أو تكلف
في الوداعة أو ربما كانت تظن ذلك لوقع الغربة عليها فهي لم تجرب
مغادرة بلدها قديما بل حتى بلدتها لم تغادرها إلا في زيارات خاطفة
.

نساء حاسرات عن رؤوسهن , رجال ببدل البشوات , و هذه
القبعات التي يرتديها الجميع واسعة الأطراف للنساء و محدبة
للرجال , الجلوس بطريقة معينة ثم النهوض على نفس الهيئة كان
أمرا متعارفا عليه تقريبا أما هي فبين هذه الجموع بلباسها الفضفاض
و خمارها الطويل ووليدها الذي يستقر بين ذراعيها لا تعلم أين
ستكون الوجهة ولا أين سيأخذونها إلى أي بيت و أي حي ؟ , كيف
سيكون شكل الحياة هنا , ما الذي يمكنها أن تفعله , دوامة

إستفهامات و خوف متزايد يجثم على صدرها لكنها تتماسك لتمنح شيئاً من الدفء لوليدها حتى لا تفجعه في نومه .

كم من الصعب بداية حياة جديدة من الصفر هكذا هي الحال التي تجتاح عقلها , كيف ستتدبر أمورها , كيف ستتعن اللغة و هي التي غادرت مقاعد الدراسة مبكرا , هل سيكون جيرانها لطفاء كالذين كانوا في البصرة , هل يمكنها الحديث معهن على عتبات المنازل حيث يحلو الحديث عن تفاصيل اليوم و مشاريع الغد , لا تكف الأسئلة عن طرق بابها و قد تجللت بحال من الصمت و الدهشة .

لتصل لسيارة الأجرة التي ستقلها للحي الجديد الذي يعمره اللاجئين من بلدان عربية مختلفة كان عليها أن تصطدم بجموع كثيرة من البشر تشير لهم على الجواز العراقي و أوراق اللجوء فيرمون لها فتاتا من الإشارات و الكلمات التي تعلم بعضها و تجهل أغلبها من نافذة لأخرى و من بوابة لأخرى حتى وجدت نفسها أخيرا في السيارة التي ستقلها لمكان إقامتها الجديد , بداية منفرة و مرعبة لكن عزمها لم ينثني في إيجاد طريقة ما تتجاوز بها تلك العقبات المتتالية التي تنزل عليها كالمطر.

تطل من النافذة إلى تلك الطريق التي تمكث الغابات على حافتيها هنا وهناك أشجارها ليست كتلك التي تعرفها في بلدها والتي طالما إعتنت بها ليست بهذا الطول وهذه القامة الفارعة و أما إمتدادها فهو أمر مخيف بالنسبة إليها يشعرها بالضيق و أنها ستفقد وجهتها التي تريد لا تعلم لماذا تجتاحها هذه الظنون المفزعة لكن شيئاً ما يثب قلبها أن يثب خارجاً كلما بدت عليها آثار القلق حتى تستعيد توازنها في كل مرة.

تبدأ المساكن في الظهور بأسقف مثلثة , تثبت بينها لعلها تجد شيئاً يشبه الأسقف المعتادة التي تعرفها , نوافذ زجاجية عديدة , واجهات محلات ضخمة , حركة منتظمة تشعر ببعض الكآبة لما تفتقر إليه من الحميمية التي إعتادت عليها , جموع صامتة من الناس ليس هناك من تنادي بصوت عال للركب الذي تجاوزها و لا الخضار الذي يصيح بأعلى صوته مادحاً سلعته و لا جارتان تقضيان بعض الوقت للتسلية أمام بيت إحداهن, يا ترى كيف سيمضي اليوم هنا و كل تفاصيله المعتادة غير متاحة هنا.

تقف السيارة أمام منزل من المنازل المترابطة المتشابهة يشير إليها بالنزول مع بعض الكلمات الإنجليزية التي لا تعلم معناها إلا عن

طريق الإشارة فيما بعد كترجمة لما كان يقول , باب صغير و صندوق بريد على جانبه تملء واجهته نوافذ زجاجية تجعله مكشوفاً أكثر من اللازم , تدخل فتجد ممرا صغيراً مؤدياً لبيت جلوس صغيرة في مقابلها مطبخ صغير و أما غرف النوم و الحمام فعلى اليمين حيث ممر صغير يؤدي إليهم جميعاً , ضيق بعض الشيء لكنه يكفي بالغرض فليس هناك سواهما الآن فالعائلة قد فقدت كثيراً من أفرادها و هاتان الأريكتان لن يجلس عليهما سواهما هي ستنهمك في التفكير و هو سيغط في النوم أو سيطلب الغذاء هكذا ستكون الحياة مبدئياً في بين هذه الأسوار الضيقة التي لا تحمل شيئاً من تلك الروح التي كانت تسكن حيطان منزلها القديم.

تذكر حين كان حلماً قديماً لها أنها ستزور أوروبا في رحلة مع زوجها و إبنهما و ربما درس إبنها هنا و أتى بهما كي يستقرا معه أو ربما تزوج هنا و تبادلوا الزيارات فيما بينهما لكنهما اليوم لاجئان يتسولان معيشتهم هنا و كل تلك الخطط قد أتاها شهاب حارق صيرها رماداً, تتنهد طويلاً , ها قد أفاق جاسم بعد أن تركها المرافق تستكشف البيت و تعتاد المكان , تركت لها بعض المواد الغذائية

و بعض مواد التنظيف , ربما لن تكفي حيث يجب عليها الذهاب
لشراء مستلزمات أخرى , مهام شاقة أخرى تبدأ في الظهور.

لا تنكر أن الحال هنا على الأقل أكثر أمانا و أدعى لبعض النوم
لكن الضيف ليس كالمالك , و أما الحاشية فلن يكون النوم عليها
كتلك التي مزقتها الرصاص في بيتها.. نعم بيتها فهذا البيت له مالك
آخر لن تكون مرتاحة هنا كما كانت من قبل سيدق جرسها في كل
وقت دون أن تستطيع تخمين من القادم ثم ستتلعثم في الرد ستغلق
الباب و تذرف الدموع لقصورها عن الإجابة أو حتى أن تتخذ موقفا
صارما يحمي حرمتها كما كانت تفعل بحزم حين كان المفتاح ملكا
لها , لن يكون هناك رجل يقاسمها جميع تلك المسؤوليات و
المواقف .

كم هو صعب الإحساس بالعجز في ضل الأمان الصور تختلف و
يبدو أن صورة الحياة الجديدة قاتمة رغم روعة المنظر هنا عن تلك
الحواري المبنية من الطوب و الطين و الطرق المعبدة جزئيا لكنها
تفتقر للسند و الحماية الفطرية التي توجبها روابط الدم و الجيرة
هناك , تترك العنان لدموعها الحارة حتى تنساب في صمت معلنة
إستسلامها للضعف الذي يكتنفها يعم جوارحها يزيد من تضيق

الخناق على فكرها ثم لا تملك إجابة لتلك الأسئلة الملحة جميعها

تنتبه من إستسلامها لدموعها خوف أن يجزع الطفل الذي ينظر في عينيها مستغربا , لعله لا يدري لما قد تبكي أمه و هو لم يزعجها بالبكاء حتى , تمسح دموعها بسرعة ثم تبتمس في وجهه , لا يدرك كم الراحة التي يهبها لأمه و هو بهذا الحجم الضئيل , لا يدرك أنها تستند عليه حتى تتغلب على مخاوفها بكافة أشكالها , لا يدرك أنه العصاة التي تمنع ظهرها من الإنحناء , نعم أيها الصغير هكذا أنت بالنسبة لأمك ذلك ما تريد إخباره به لكنها لا تجيد التعبير عن ذلك بلغته الطفولية التي لا تبين عن أحرف واضحة بعد لكنها تترك الأمر للغريزة حتى تنقل له جميع تلك الرسائل و يبدو أنه يعلمها أو هكذا تشعر هي , لغة خاصة لا يستطيع فك شيفرتها سواهما .

لحسن الحظ أن الغالبية هنا من العرب من الوافدين أو اللاجئين أمثالها فلسطينيون أو عراقيون لا يهم المهم أن لغتهم واحدة و إلا فإن الأمر كان سيكون كارثيا, سيكون أيسر الآن لإيجاد طريقة للحصول على ما تحتاجه و كيفية الإنخراط في الحياة هنا , أما الآن فستحاول الحصول على بعض الراحة بعين مفتوحة و أخرى

مغمضة فلا زالت لا تعرف المكان جيدا وإن يكن فالأمر سيان هكذا
تؤوب إلى فكرة الغربة التي لم تستوعبها إلى حد الآن.

تستلقي على إحدى الأرائك بعد أن وضعت وليدها إلى جنبها بعد
أن هدهدته لينام , يبدأ جسدها في الإستسلام للراحة بعد عناء
طويل بين السفر و التفكير لكنها لا تزال تستلم وخزات من ذاكرتها
في كل إغفاءة قد تكتحل عيناها بالنوم بعدها , كم هو مرهق أن
يفترق الإنسان ووطنه دون وداع حميم , فكرة أشد من الكوابيس
وطأة على النفس و أحد من السيوف فتكا.

لم يظن أن الأمر سيكون بتلك البساطة يبدو أن الأمور ستنفرج
بدأت تلك الطريق التي رسمها لنفسه في إستعادة محطاتها البهيجة
التي كان قد أخفى ملامحها ظلام تلك الإجهاضات التي إعترضته من
تربص لآخر من رفض لآخر أشد قسوة و أبشع لهجة , يتذكر حين
كان يدخل المكتب الذي كان فيه قديما فيسمع التتمتات التي
تتهكم على أصوله و طريقة تفكيره و جعله ضمن قوالب لا يعلم
عنها بقدر ما يجهل و هو لا زال في بداية الطريق بل في بداية الحياة
لم يعتد سماع الإنتقادات بذلك الحجم و تلك الحدة التي تنال من

شخصه لا من عمله, الجميع هنا متعدد الوجوه مزدوج الحديث
متمرس في ذلك يكاد لا يسقط في إختبار الثبات الإنفعالي إلا نادرا.
حتى أصوله الإيرلندية لم تشفع له , كان لا بد له من سماع بعض
الموشحات التي لا يعلم مأتاها سوى من تلك القنوات التي ينتابها
سعار "البهدلة" لما هو خارج عن مماثلتها و تذكير الناس بفوقية
الأعراق عن بعضها البعض حتى لا ينخدع مواطنوها الخالص و
يندرجوا ضمن أجنداث تخدم المندسين و من لا يريدون إستمرار
عجلة النماء لهذا البلد ... أفلام مجانية الصنع لدور السينما في حين
أراد أحد إيجاد فكرة لمسلسل أو فيلم ما دون عناء.

لم يكن ذلك يشغله كثيرا عن تحقيق أهدافه لكنه اليوم أضحى
يشكل عقبة كبيرة أمام أحلامه المهنية التي صاغها أيام دراسته
بالجامعة , تلك المكانة التي كان يرسم ملامحها آخذاً في الإختفاء
و هو لا يعلم كيف يتدارك ذلك كأن ذلك البناء الذي سهر على
تشييده ينهار أمام عينيه دون أن يعلم كيف يوقف ذلك لكن اللطف
الإلهي كالعادة كان هناك , أخيرا شخص جيد يعترضه في مسيرته
اليافعة بل مميز أيضا.

هكذا كانت فراشات الفرح تحمله على الإسراع للمنزل و الإبتسامات
لا تفارقه , يستعيد نشاطه في كل خطوة يقترب فيها من البيت , و
كعادته يجد أمه و قد إتخذت مجلسا لها أما نافذتها منتظرة
العائدين و أخبارهما يسارع في معانقتها و تقبيل جبينها :

- بكم الأخبار السارة ؟

- بالمجان للأمهات

- حسنا رغم أن العرض ليس مغريا لكنه مجزء بعض الشيء

- بعض الشيء

تقطب جبينها

- لا بل قصدت لو كان بجانبه صحن من المعجنات أو الحلوى ألن

يكون أكفا برأيك ؟

- سننظر في ذلك على قدر الأخبار تكون أحجام الصحنون

دائما ما كانت أمه مرحة الطباع

- لقد وجدت وظيفة

- حقا ؟

- بالتأكيد , مع مدير جيد أيضا

- يبدو أن الصحن سيكون كبير الحجم مع قبلات كبيرة أيضا

- أوه هذا أكبر مما كنت أتصور كرم منكي سيدة ماما

- موفق بني

- شكرا عزيزتي , لا أدري كيف كانت ستمر الأيام الصعبة دون

دعابتك هذه

- على الرحب و السعة

يضمها إليه

كان لإخوته جميعهم مشاغل تمنعهم من الاجتماع على طاولة

واحدة إلا في الأعياد أو أحيانا عطلات نهاية الأسبوع بعد تسويات

عديدة في البيت القديم الذي حمل الكثير من طفولتهم و أيام

شبابهم الأولى أما اليوم فالجميع منهمك في برامج مستقبلية بعد

أن أنهى الجميع دراسته و أبتلغته دوامة الحياة المهنية و المشاغل

لكن الصدف تمنحهم شيئا من اللقاءات الثنائية بين الحين و الآخر

و هو الأمر الطبيعي الذي يجب أن يتأقلم عليه لكنه يفشل في كل

مرة حين يرى كم العبوس الذي يكتنفه حين يمكث وحيدا ربما لأنه

الأصغر أو ربما لأنه لم يتخيل يوماً أن تلك اللحمة التي لم يتخيل أن تنبث روابطها قد أضحت ماضياً يستحيل إسترجاعه من بطون الأيام .

يحتفي بوحدته تلك في منزل قريب من المختبر الذي يتربص فيه تجول في ذاكرته عديد الذكريات السالفة التي يتصفح مشاهدتها كلما أنهى يوم العمل يزوره صديقه جوزيف الذي لا يشبهه سوى في نزعته الى الإختلاء بنفسه منذ أيام الدراسة الجامعية , كانا مقربين جدا إلى اليوم تجمعهما بعض الهوايات كالقراءة و ركوب الخيل و التأمل الكثير .. نعم هي هواية ينخرطان فيها دون رسوم .

جوزيف براغماتي الطباع لكنه يملك نزعة إنسانية قد تفاجئه في كل مرة إذا ما تحركت داخله أو ربما كان على النقيض من ذلك لكنه لا يدع مجالاً لشخصه الخفي أن يظهر أمام الناس ذلك الإختفاء وراء رداء التآني و الكتمان ربما كان مشتركاً بينهما .

لم يحاول أحد منهما التأثير على الآخر يحاول كل منهما التركيز على ما هو مشترك مع رغبة خفية في ولوج عالميهما المختلفين لكن أحداً منهما لا يجرؤ على إبداءه صراحة , هناك حاجز من الإكتفاء بالنفس يحد كليهما أو ربما لإفتقار أحدهما للأسلوب الذي يفتح به بواطن

الأشياء لكن تلك الصداقة لم تهتز يوماً لشيء من ذلك ربما ذلك ما يبقيه متوازناً بعض الشيء لوجوده في حياته بعد فقد ماريان ذلك الأساس الذي هز كيانه وإن لم يبد عليه ذلك حين فقدها في مرضها الأخير.

لكن الحياة يجب أن تستمر الأيام لا تقف على موت أحد أو فقده , هكذا كانت حياة إخوته و كان يجب عليه أن يثبت قدميه المرتجفتين في سبيل إيجاد التوازن الذي يمكنه من مواصلة العيش و التفكير في المستقبل كعادة الشباب أمثاله , فالموت ليس بالعدو المتجسد حتى ينال منه و لا بالسهل حتى يقضي على وجوده هو سيف مسلط على الأعناق لا ندري متى و كيف سيقدر إنهاء حياتنا يوماً ما ربما هذه هي الحقيقة التي لا يتقبلها البشر رغم وضوحها .

يدق الجرس يقف على جانب الباب كعادته :

- من القادم ؟

- هل هناك غيري من يفتقد شخصاً منعزلاً عن البشر

يبتسم فاتحاً الباب

- وحده المنعزل من يبحث عن يشابهه تفضل بالدخول أيها
الرؤوم

يفتح الباب يتتابعان إلى حيث المجلس

- حسنا سيكون عليك الحجز قبل أن تكتمل القائمة المتاحة
للمنخرطين في سباق الخيل الذي سينعقد الأسبوع القادم أم أنك
ستعلن إعتزالك قريبا من أجل ذلك الختبر اللعين الذي أصبح يلتهم
معظم وقتك

- لا بالتأكيد , ذلك متنفسي الوحيد سأمر على مكتب الحجز في
المساء أو ربما غدا صباحا , لا أعلم حقا , يبدو أن وقته أخذ في
الإتساع على حسابي بعض النفس الذي يمكن أن يكون قد بقي خطأ
في رئتاي

- ها قد بدأ ينتبه , ربما

- حسنا أنت محق لكن ماذا يمكن أن أفعل حيال ذلك أصبح عاطلا
متفرغا للمرح بدون راتب مثلا ؟

- لا لم أقل ذلك لكن يمكن إيجاد وظيفة الآن على حد علمي أقل
بؤسا من هاته

- ربما لكن ليس الآن الأمر في غاية التعقيد

- حسنا أنت أعلم بذلك مني لكن كان علي التنبي فقط

- شكرا أيها المنبه

يرمقه بنظرة ماكرة ثم يبتسمان

قد نتجاهل مرور الزمن للحظات نود أن لا تزيد دقائق ساعاته من رؤيتنا لحجم الألم الذي نتجرعه ألم الحرمان من الوطن من الذين علمنا تفاصيلهم و غاصوا في تفاصيلنا إلى مجموعات من البشر نجهلها بالكلية نود فقط المضي إلى الأمام في محاولة شبه يائسة إلا مما قد تخبئه الأقدار لنا من فرح كعادتها إذ تهادنا بعد أن إعتدنا مكوث الألم في بواطننا لفترات طويلة , نرمم صور الحاضر التي قد لا تعجبنا بل قد تبرز جميع بشاعتها دفعة واحدة في طريقنا للثبات على أرض صلبة بشيء من صفاء الماضي و صوره القشبية التي تأخذ في التضائل حين تتزاحم عليها مسائل الحاضر التي يجب علينا التعامل معها إما ننتصر فيها أو نخيب و هي النهاية التي تثب إلى عقولنا في كل مرة نحاول فيها اجتياز الصعب منها .

هكذا مضى الأسبوع الفائت و هي تكتشف الجيران , المكان , تعيد ترتيب البيت لعله يشبه شيئاً مما كانت تعلمه حتى تطفئ شيئاً من الإغتراب الذي تكتوي به في كل يوم تنهض فتجد ذات الكابوس ماكثلاً لا يتزعزع , تنظر في وجه جاسم ذلك الصغير الذي إختزلت فيه جميع الماضي و إكتفت به عن جميع تلك الخسائر التي مضت , تعرفت على جارتين إما إحداهن فعراقية المنشأ و أما الأخرى فهي مغربية , صحيح أنهن قد تطبعن بطباع القوم هنا من أن الحياة يجب أن تسير وفقاً للساعة المعلقة على الحائط لكنهما على الأقل يتكلمان بلسانها , يحملان دماء مثلها و من منا لا يشعر بالأمان لمن لا يشابهه تلك هي طبيعة البشر جميعهم .

تتجاهل تفاصيل اليوم التي لا ترى فيها شيئاً من روح تلك البلد التي غادرتها , تلتزم الصمت غالب الوقت و هي التي إعتادت الثثرة هنا و هناك لا تعلم هل حجم الحديث أكبر من أن يتجاوز الحلق أم أنها لم تعتد بعد الحديث عن السواد بتلك الكمية المخيفة , أما عما كان بهجة بالأمس فقد أصبح إستحضاره نكاً للجروح و عبثاً بنبضات القلب فقررت فيما بينها و نفسها أن لا تتحدث عن شيء من ذلك .

يبدو غريبا بعض الشيء إلتزامها للهدوء دون ولولة أو نحيب على الأقل على وسادتها حتى تزيح شيئا من مضاضة ما تمر به , أم أن الصدمة لم تمر , كل تلك التحليلات كانت تمر عليها مرورا صامتا كالمشاهد في التلفاز لما ترى من تبدل حالها و عبوسها الذي يزداد في كل ثانية تمضي في هذا المكان الغريب لولا أنها تطمئن لشيء من التشابه بينها و بين السكان هنا أو رفقة وليدها الذي لم يحبو بعد حتى لكنها الرحمة الإلاهية في الربط على الأفئدة.

كان ذلك السيد متعجرفا و غاضبا جدا و يبدو أنه كان يسبها و هي لا تعلم معنى كلماته كانت تهرول خائفة حتى ترجع لبيتها مهلا هو ليس كذلك فلتقل أنه مأواها .. كان ذلك حين ذهبت تحضر بعض المستلزمات بتلك الجنيحات التي تخبئها للمصاريف اليومية حتى إعترض طريقها ذلك الرجل الستيني على ما يبدو إشمئز حين وقعت عيناه عليها ثم أخذ يسبها ثم إقترب منها لعله أراد إيذائها لكنها تجاوزته و أخت تهرول ناحية المنزل لقد كانت ذكرى مروعة تنضاف لمأساتها التي لا تدرك متى ستكون نهاية فصولها قصف ثم تهجير ثم لجوء ثم بيت غريب في بلد غريب ما الذي بقي حتى تتجرع مرارته في هذا لكون , يبدو أن هذا أكثر العروض وفرة لو كان

في محل للخيبات لأفلس لو كان بهذا الكرم لكنه لا زال يضيف أكثر مما قد أهدى .

إقتربت من البيت فزعة , و قد فسد هندامها و إتسخت حواف ثوبها بالطين من الجري , إعترضتها فتيحة جارتها المغربية :

- صباح الخير ماجدة

- من أين يأتي الخير بربك في بلد تنتهك فيه حرمة النساء هكذا دون سبب؟

تهداً من روعها , تجلسها على الدرج الصغير لمنزلها

- كل شيء سيكون على ما يرام فقط أخبريني ما الذي حدث ؟

- كنت أتبضع للمنزل من حيث أشرتي علي و في العودة إعترضني

شيخ كبير إمتعض حين إعترضته ثم إنطلق يصرخ و يتفوه بكلمات

لا أعلم معناها ثم أخذ في الأقتراب مني لعله أراد النيل مني بيديه

لكني و لله الحمد تجاوزته بسرعة لا أدري كيف ثم أخذت في الهرولة

حتى مشترياتي سقط منها الكثير و كما ترين حالي و

ثم أخذت في البكاء تاركة العنان لدموعها...

عانقتها الجارة في شفقة :

- هوني عليك لا داعي لكل هذه الدموع ستعتادين الأمر نحن نتعرض لذلك بشكل يومي ثم ذلك لن يؤثر على حياتك هنا ألا ترين كيف نجتمع نتشارك الأوقات السعيدة هنا و نشتغل في بيوتنا و خارجها .

في تجهم بعد أن غادرتها آثار الهلع قليلا ترد في غير موافقة :

- لا أظن ذلك كيف يعتاد المرء على أقوام هكذا؟, لو كنت بالبصرة لتدافع الشيوخ لنجدتي فضلا عن الشباب أما هنا فلم ينبس أحد ببنت شفة كأن المنظر عادي لا يهم إن نال أحد مني في الشارع دون وجه حق .

تبتسم فتيحة مهونة بعد أن ظلت كلماتها مرادها مستدركة حتى

تبشعشع الطمأنينة تلك العيون الفزعة :

- صحيح الحياة فردانية هنا بعض الشيء

- ها بعض الشيء

أدركت أنها على أبواب المصارحة التي يجب أن تصارح بها نفسها
أولا هي الأخرى في ثبات ترد بعد أن ربتت على كتفيها :

- فلنقل فردانية بالكلية لكنك ستجيدين الدفاع عن نفسك بل
ستنالين أيضا ممن يؤذونك لا عليك إنها مسألة تعود لا غير أعدك.

إعتيادها لمثل هذه المواقف هو الذي يمنحها تلك الثقة التي
تحدث بها اليوم أمام هذه المسكينة التي يجب عليها مصارعة
الكثير من العواطف حتى تلتحق بشاطئ الأمان ذي الرمال
المتحركة بين الأحداث المتباينة الأثر كأنما هي زلازل بدرجات
مختلفة لا سبيل لتفاديها سوى التأقلم مع إرتداداتها.

تنتصر ملامحها كأنما ترفض تلك الشفقة التي لا تخاطب وجدانها
بشيء يستسيغه قائلة :

- لا أريد أن أعتاد شيئا كهذا ..أريد الرجوع للبصرة حيث يعلم
الجيران من أنا و حيث لا يجرأ أحد على مضايقتي بهذا الشكل .

تلك الأمنية التي يشترك فيها الجميع لكنهم لا يدركونها و لعل ذلك
المآل الذي تحتّمه الحال لم تهضمه نفسها بعد و هذا ما تريد لفت

إنتباهها له حتى تتجاوز تلك الصدمة التي ربما لم تدركها لحد اللحظة:

- حقا أتمنى لكي ذلك ماجدة لكن الأوضاع تحتاج لوقت قد يطول لا قدر الله حتى تتمكني من الرجوع, لكن الآن يجب أن تتعلمي أساليب العيش هنا وكلنا تجارب سابقة لكي لن تحتاجي لتعلمي شيئاً بمفردك و أما الآن فدعينا ندخل إلى البيت لنقوم بترتيب الأغراض و تستريحي قليلا ثم عودي إلى بيتك إن شئتي .

ربما كان ذلك أقصى ما يمكن أن تجود به الحال عليها من بعض الإرتياح , تهز رأسها موافقة :

- حسنا لا يمكنني الإطالة فقد تركت جاسم نائما لأني لا أستطيع أخذه برفقتي لا بد أنه سيفيق قريبا
- كما تريدين تفضلي إلى الداخل .

كانت تستيقظ نافرة الحوار , تقترب من أشياء منزلها في إرتباك لكنها بعد ذلك اليوم , بدأت تعتاد الحياة هنا شيئاً فشيئاً فالأخبار القادمة من العراق لا تنبأ برجوع قريب فضلا عن كيف ستعود و إلى من تعود لا أنباء عن زوجها أو أي أحد من أفراد عائلتها حتى الآن , لا

تستطيع الوصول لأي خيط قد يجمعها بأحدهم تسأل دائما
تشاهد التلفاز في كل وقت لا تكون فيه مشغولة بشؤون المنزل أو
بوادر الحياة الاجتماعية التي تحاول الإنغماس فيها بعد أن إعتزلت
البشر لفترة طويلة.

لكنها اليوم أكثر اعتمادا على ذاتها أقل حساسية وأكثر تقبلا للشنائم
, تبتم حين كانت تبكي في ذلك اليوم الذي ظنته الأكثر وحشية
لقد تعرضت لما هو أسوأ فيما بعد لكنها كانت هادئة هازئة , تتعلم
شيئا فشيئا المفردات هنا وهناك , أصبحت تدرك الوضع هنا و
كيف يراها الجميع هنا , تلك النظرة التي إستوعبتها دون أن تحدث
في عقلها صدمة أخرى ربما يعتاد المرء منا السوط بعد الجلدة
الأولى .

حسنا هي لا تنتمي إلى هنا ولا يمكنها ذلك حتى إن أرادت لكنها على
الأقل لن تنتظر دوي القصف حتى يبتعد عن منزلها لتنام وهذا كاف
الآن , الأقل قسوة بين المرارات كانت تلك الخيارات المتاحة التي
أمام الجميع فليست بمفردها.

لقد توافد الكثيرون بعدها حتى أصبحت دليلا للوافدين من اللاجئين خصوصا ممن مروا بذات الظروف و المآسي لم تعد الوحيدة التي تعاني الفقد و الإغتراب و ضبابية الرؤية لما هو آت و حلم العودة الآخذ في الإبتعاد كالسراب الذي يحسبه الضمآن ماءا.

تلك الزهرة التي كتب عليها ان تترعرع في غير تربتها الأم , جاسم , كم يعجبها إسمه و تتمنى أن يكون له نصيب منه , أن لا يكسر , أن يأتي ذلك اليوم الذي تعتمد فيه عليه كرجل للبيت هكذا هو الصبي في العائلة يربي حتى يعتمد عليه حتى يكون حاميا متمردا على المصاعب صلبا كالوتد لا يستقر البيت بدونه , ذاك ما تأمله أن يكونه , يكبر شيئا فشيئا لقد تعلم كيف يمشي خطواته الأولى , تلك الخطوات التي تحسبها كل يوم كلما زادت زاد يقينها برجوع الفرح لقلبها الذي تجرع الكثير من الويلات التي تكبت الإبتسامة الصادقة على شفاهها.

ستأخذه للتنزه غدا عند الجسر , كم يعجبها ذاك المكان الذي يسمح لها بالإستطراد في الذكريات الجميلة التي عاشتها صبية و زوجة , يدغدغ في ذكراتها كل ما كان دافئا , يفتح في قلبها مسام التفاؤل

فترجع لبيتها و قد إستلقت شيئاً من الإتساع في نفسها حتى تمضي في هذه الأيام التي أضحت تكتسي شيئاً من الحياة.

لقد قامت بتحضير جميع ما يلزم النزهة , أكله المطحون , بعض الأغذية التي ستحيطه بها حتى لا ينال البرد منه إذا ما تغير الطقس , شيئاً من الأكل لها , تأمل أن تجد لها مكاناً تمكث فيه حتى تتأمل في إمتداد الأفق أمامها مع إبنها بجوارها , جاراتها منشغلات بأمورهن ثم إن النزهات الجماعية لا تروقها كثيراً يحن تود الإختلاء بنفسها و حين تكون لديها كثير من الحكايات لترويها لفتاها , ربما لا يعيها الآن لكنها متنفسها الوحيد حتى لا تشعر بالوحدة أو بفقدان العائلة .

طالما كان لها جيران من طوائف شتى غير تلك التي تنتمي إليها لم يحدث أن عادى أحدهم الآخر لعرقه أو قبيلته كانوا يتقاسمون العيش دون مناوشات أو صراعات كما تراه مستشريا هنا , لا يتعدى خلافهم الحديث و السجال فيما بينهم فيما يقيم الحق بينهم لكن هذا السعار لنبذ المختلفين عن الشعور الشقراء و الأعين الملونة شيء فاق تصورها و هي من كانت تسمع أن دول أوروبا دول متقدمة هي تعيد السؤال على نفسها فيما ؟ في سوء الضيافة ؟ في تطويع

الناس خلاف رغباتهم و فيما يختارون ؟ بالشتائم و إصاق التهم ؟
بالتجسس على الجيران و إخبار الشرطة بأشياء لا يصدقها العقل
فقط لأنهم لا يشبهون القالب الموجود هنا ؟ حقا الأمر مثير
للإشمئزاز إلى حد لا يوصف.

لقد أخذ إنبهارها يختفي شيئا فشيئا فواقع الحال يخبرها بشيء آخر
مناقض تماما لما كانت تتصوره لكنها مضطرة لتسول الأمن هنا حتى
يتسنى لها المشي في الشارع دون خوف من وقوع أحد البناءات على
رأسها و أن تمارس الحياة دون ترقب لمغادرتها في أي لحظة , كانت
تلك الحسنة الوحيدة التي تجعلها تتقبل العيش ضمن هذا
المجتمع .

يتقدم الناس هنا في تقريب المسافات لا ليروا ماهو جميل في
إجتماعهم بل ليرزوا بشاعة ما قد يحمله البشر لبعضهم البعض ,
يتقدم الناس هنا في الأكل و الشرب و الخدمات السريعة حتى يتسنى
لهم ممارسة العاهات المجتمعية بكافة أشكالها دون رقابة و دون
ضوابط , يتقدم الناس هنا في معرفة الثقافات و العلوم ليزيدوا من
تعميق الفجوات بينها على أساس العرق و الدين لكنهم يجتمعون
في السؤال عن نماذج لتقريب فئات المجتمع بعضها من بعض لا

تخف ليسوا مجانين إنهم عقلاء القوم هنا و من لهم السلطة و
القرار .

تلك هي الصورة التي يلمعها الإعلام القائم على الإزدواجية لا يدرك
هذا الواقع إلا من إكتوى بنيران الحروب أو الواقع الاقتصادي الذي
يجبره على الهجرة إلى الرواتب الأكثر فلسا حتى يتسنى له إدراك
شيء من رفاهية المعدة و شيء من النفس دون نظر في العواقب
التي يجره لنفسه من ممارسة الإبتدال و التمزق بين الأحلام التي أتى
لتحقيقها و إنتظارات المستضيفين له هنا إن حق له تسميتها ضيافة
لا عبودية مرفهة .

يعيش الجميع هنا أزمات التمزق و التشتت في إيجاد الوجهة
الصائبة التي قد لا تتماشى مع ما هو متاح لهم من مساحة التفكير و
العيش ضمن الضوابط التي يريدون العيش ضمنها و إلا وصفوا
بالتعنت و التزمّن و إنغلاق الفكر هذه التهم التي يجب أن تتقبلها
دون سؤال عما إذا كانت حقيقة أم زيفا , فأنت لا تملك رفاهية
الإختيار في بلد الإختيارات , ربما لأنك لست ضمن الصورة المطلوبة
حتى تتسع لك الخيارات.

ربما الأمر ليس سيئا الآن لكن تلك النوايا تجعل جميع الوافدين هنا في إنقباض دائم إن كانوا من أولئك الذين يحتفظون لجذورهم بشيء من العرفان و المودة أو لم تعجبهم السبل الموجودة و أرادوا إنشاء سبيل خاصة بهم تجمع بين الأصول و مشروعية الوصول , قد يتسم الوضع الخارجي بالتقبل لكن الكواليس الخلفية مرعبة لمن أراد إلقاء نظرة حتى .

كل تلك الهواجس التي تتمنى أن تختفي من يومها كانت تخامرها واحدة تلو الأخرى لكن النظر في عيني إبنها بين الفينة و الأخرى كان يذهب بثقلها , سيكبر و يحمل معها كل ذلك ستتخفف يوما من كل تلك المناظر التي كتب عليها أن تعيشها دون حماية و دون رفيق و أين هو ذاك الرفيق أين يكون الآن هل هو فوق التراب أم تحته .

لا تدري لما لم يكن يومها اليوم كباقي أيامها حين تجلس هنا كانت آخدة في الإسترسال في البكاء دون أن تستطيع كبح جماحه , تشعر بالضعف يجتاحها , يهز ثباتها الذي عملت على إيجاده طيلة الأشهر الفائتة , تتحسس مكان إبنها , أين ذهب , لن يستطيع الإبتعاد لا زالت خطواته الصغيرة لا تذهب به بعيدا تنتفض باحثة بين الأرجل تائهة النظر في الجموع .

جاراتها يواسينها و يأملنها بعودته لحضنها قريبا فقط عليها بالصبر
و اليقين.

لن تغفر لنفسها تفريطها فيه , لن تكون لها حياة تسطر أيامها
ووجهتها هي الآن تكمل العيش دون روح و دون طعم حتى الشيء
الذي كانت تعترض به عما إستلته الأيادي الغادرة منها قد ذهب
ربما يعود تأمل ذلك و ربما لا , هاهي تعلم اليوم موتا دون الموت
أو أشد عذابا .

ظنه الجميع قريبا من أبويه هنا أو هناك يقومون بملاعبته قليلا ثم
النظر إليه و هو يمض مستكشفا الوجوه في إبتسامة وديعة بعد أن
قرر السير على قدميه قليلا , يصطدم بسيدة تمسك بيده تنظر
فيمن سيأتي حتى يأخذه من بين يديها ربما كان تائها لكن لا أحد يأتي
, كانت يومها وحيدة بعد أن غادر أبنائها جميعهم إلى المدرسة
فقررت أن تنزهه قليلا لكن وداعة ذلك الفتى الصغير أسرة جدا لم
تتمكن من تركه هكذا دون أن تطمئن لرجوع لحضن أمه التي لا بد
أن تأتي في أي لحظة لكنها لا تأتي و الوقت يتأخر لا بد لها من المرور
لأخذ الأطفال من المدارس و بعض الحاجيات الأخرى التي تنتظرها
حتى تكملها.

تقرر أخيرا أخذه معها , ستبلغ الشرطة بأنها وجدته دون والديه ربما يتصلان بهما إن قاما بالإبلاغ عن ضياعه أو ربما وجدتهما في طريقها للسيارة , لكن الأمر لم يبدو مقنعا لماريان سيكون مركز الرعاية القريب من هنا أنسب في معاملة طفل بهذا الحجم ثم سيتكفلون بالإبلاغ و جميع الترتيب الأمنية عوضا عنها و التي قد تأخذ وقتا طويلا يمكنها أن تمكثه بجواره , إستقر بها الأمر هكذا.

تدلف الباب تستقبلها الموظفة المهمة بشؤون المستقدمين الجدد من الأطفال بوجه باسم فقد كانت تقوم بزيارات عديدة هنا طالما كانت شغوفة بالأطفال بالرغم من أن لديها ثلاثة لكن إحساسها بالأمومة كان أكبر فإختارت أن تمنح شيئا منه لن يفتقدونه , كان الأطفال يتعرفون إليها فور قدومها عليهم لكنها اليوم كانت في مهمة خاصة كانت تمسك الصغير بين ذراعيها :

- مرحبا كلارا , هل لي بخدمة

- بكل سرور سيدة ماريان على الرحب و السعة كيف يمكنني تلبية ذلك أرجوك .

- شكرا هذا لطف منكي لقد وجدت هذا الوسيم تائها دون عائلة ,
لقد إنتظرت طويلا حتى يأتي أحد للبحث عنه لكن أحدا لم يأت
فتوجهت به إلى هنا فهل ستتكفلين بإجراءات الإبلاغ عنه لدى
الشرطة أو ربما مكث هنا حتى تستلمه عائلته سأكون شاكرة جدا
لهذا المعروف ثم إن علي الذهاب سريعا فلدي مهام بالإنظار , هل
يمكنني الإعتماد عليكى ؟

- بالتأكيد كعامله خاصة و إلا فإن الأمر في غاية الحساسية
خصوصا مع الظروف التي نمر بها هنا من ناحية الرعاية و التأمين
كما تعلمين

- أعلم ذلك سأكون ممتنة جدا لذلك

- حسنا

تأخذه من بين يديها تتجه به نحو قاعة مقابلة حيث تضعه في
مقعد خاص بمن هم في مثل سنه , تشعر برغبة في إبقاءه بين
ذراعيها لكن لا يمكنها ذلك الآن لا مكان للعواطف تقرر الهرب من
تلك الحاسة الجارفة التي تمتلكها فتخرج سريعا مغادرة مبنى المركز.

تستيقظ فزعة من السرير بعد الحقنة المهدئة التي أخذتها حتى تهدأ، تتفقد مكان ابنها المعتاد ، تبكي طويلا حين تدرك أنها فقدته ، تستسلم لتلك الحقيقية المرعبة التي يصعب على الأمهات تقبلها ، كيف لها أن تواصل الحياة و جزء منها قد ذهب دون وداع كالسابقين يبدو أن الجميع إختار الإختفاء فجأة دون قبلة وداع أخيرة من حياتها تاركين لها صدوعا لا تندمل ما أن ترمم شيئا منها حتى تفجأ بجديد يتخذ مكانا أوسع .

تهم بالوقوف فلا تستطيع لكنها تستجمع قواها مجددا حتى تستعد للخروج للبحث مجددا عن ابنها لا يمكنها أن تتخيل حياة بدونه و لا يوما واحدا تقوم فتيحة بإمساكها من يدها و إخبارها بأن حالتها سيئة لا يمكنها الإعتماد على نفسها حتى و إن تركت لها المجال لذلك لا بد لها من الإستراحة إثر الصدمة حتى تستعيد شيئا من قوتها ثم إن الشرطة تقوم بمهمتها على أكمل وجه سيتمكنون حتما من العثور عليه, تجتهد في إبقائها متماسكة لعلمها بحجم الألم الذي تشعر به .

كعادة الأيام تمضي دون مشورة أحد دون أن تمهل أحدا للملمة شتاته لإنقاذ نفسه من التيه الذي تحياه روحه , لكي يقف مجددا

دون إرتعاش , ليجد وجهته التي سيرتادها بعد أن تنزل به النوازل ,
بعد أيام من البحث دون نتيجة و تلك الليالي التي غادرها النوم فيها
و تلك الإبتسامة التي لا تشعر بطعمها إلا حين تنظر في عيني إبنها
فقيدها , تلك الكلمة التي لا زلت ترفض أن تلتصق بعقلها , تستمر
في إيجاد الأمل , ترسم يومها الموعود حين يعود مجددا لقلبها ,
حين يعود ليقاسمها الحياة هنا , لم تأتي هنا إلا لأجله في سبيل أن
تنجوبه من شرارات الصواريخ و القذائف هاهي تفقده دون قذيفة.
ها قد فرقت بينهما الأيام على الأرض التي أملت أن تجمعهما و
تأويهما تحت سقف واحد دون أن تترقب سقوط المنزل على
رأسيهما ها قد سقط دون صوت و دون أن ترى الركاب أمام عينيها
بل داخلها , ربما كان عليها أن تختار الموت و هو بين ذراعيها على
أن يستله القدر دون إذن منها ستكون المداهمات أكثر مراعاة
لخذلانها دون مهلة على الأقل.

كانت تجتهد لإستبقاء شيء من الثبات داخلها لأجله لكنها اليوم لا
ترى فائدة من الحياة بذاتها دونه كانت ترى قابل أيامها عبر خطواته
, تأمل أن تضيف لصورتها الزوج و ربما جميع العائلة لا أن تسقط
من صورتها تلك التي تسعى لإستعادتها أهم ركن فيها .

لا نعود كما نحن بعد الفقد , نحن فقط نسخ تريد إستكمال الحياة
لا غير لا خوض غمارها مع من كنا نحسب بقائهم دائما , لا يكون
لها ذات الطعم ذات الألوان و ذات الملامح هي فقط نوع من أنواع
الإستمرار في إجترار النفس و إستكمال ما تبقى منه هكذا هي النسخ
التي نستلها بعد الفواجع حتى نكونها أمام الناس و أمام أنفسنا .

لعلنا لا نكثر لتفاصيل الحياة كما كنا لا نشعر بذات الحماسة إذا
حصلنا على الأشياء لا تكتنفنا تلك المتعة التي تكون و نحن مع من
نحب مع من تقاسمنا معهم تفاصيل الفرح الأولى , لا نجاهد
لنستبقي شيئا و نتحدى شيئا لننال أهدافا بعينها كل ذلك يفقد
قيمه تنحسر الحياة في مجرد العيش لأن الموت لم يحن بعد.

...تتبع في فصول أخرى